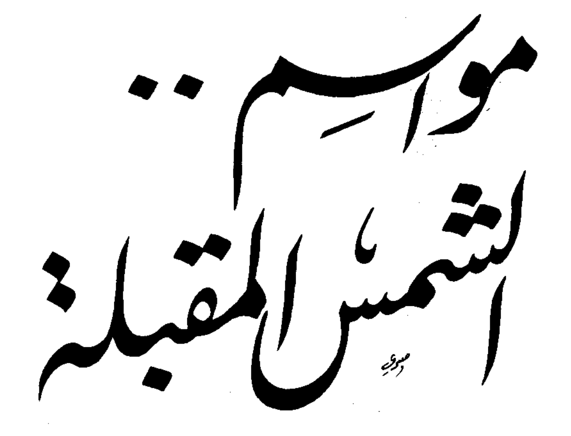
محمد علي قدس



مجموعة قصصية

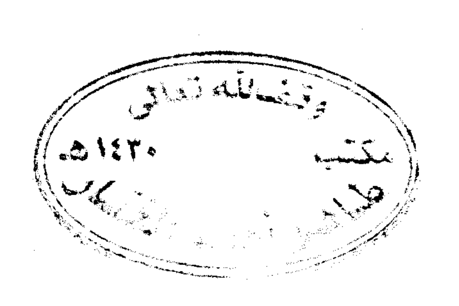
الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية





بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤


وقف لله تعالى
مكتبة
١٤٣٠هـ


مواسم
الشمس
المقبلة



الإهداء

.. إلى المداد الذي أغمس فيه قلمي ..

.. إلى النبع الذي أستقي منه حروفي ..

.. إلى من أكتب لهم ..

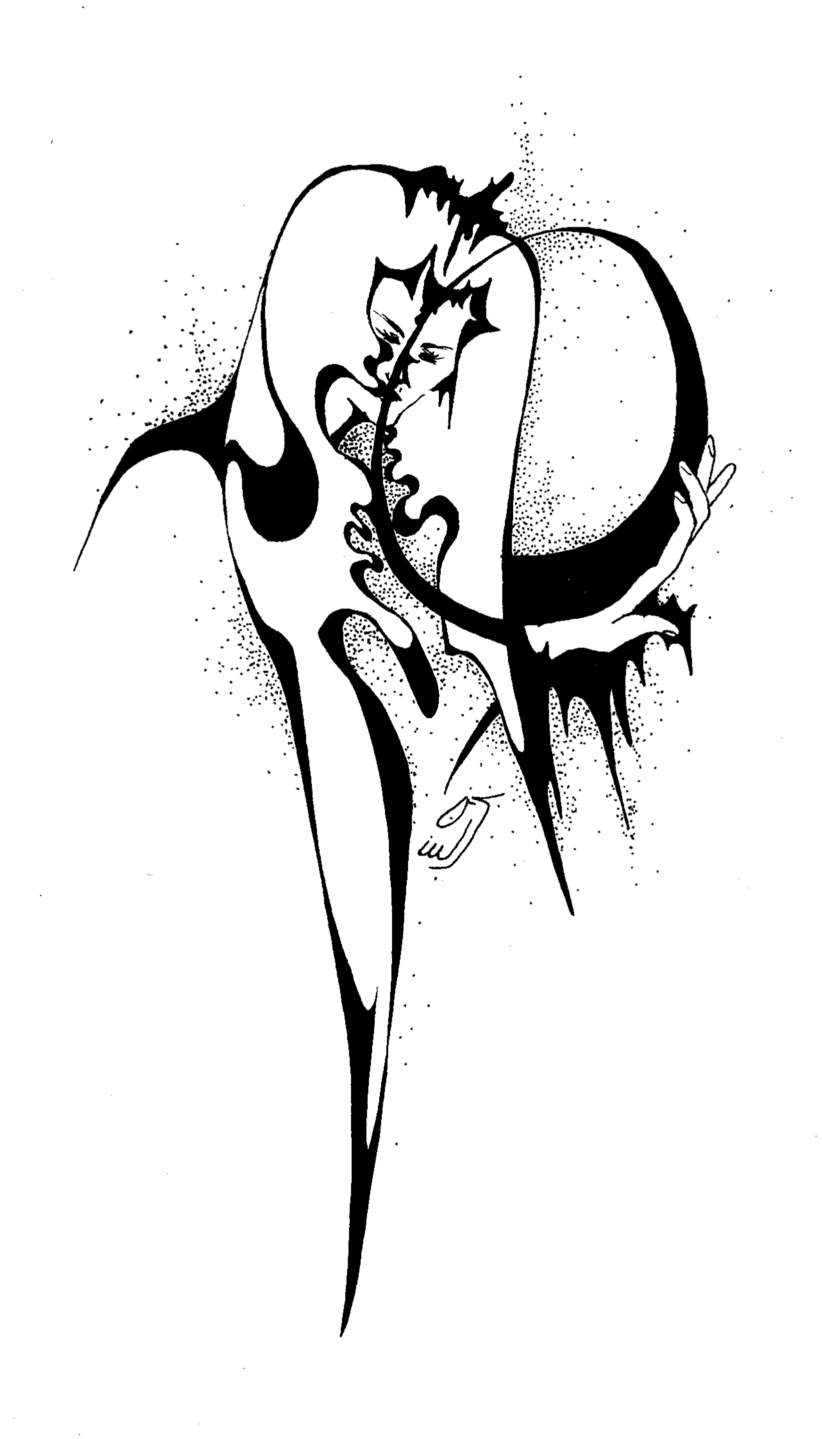
وأعيش بحرفي محترقاً من أجلهم !!

.. من كانوا قرائي !!

إلى كل قارئ .. وقارئة .. أهدي مواسم الشمس المقبلة

المؤلف









جلست « ثريا » الى جهاز الراديو مشدودة اليه بكل حواسها ، وما انفك المذيع يتلو أسماء الناجحات باضطراد وتواتر . صرير الأبواب يخترق أذنيها بعنف واستفزاز . القلق يسلمها لافكار متماوجة .. تموسقت التأثيرات فى داخلها . أعصابها مشدودة . حكّت بسبابتها أنفها المتناسق الصغير للمرة العشرين !!

.. أخذت ورقة (كلينكس) رقيقة مسحت بها عرقها الناضح فى وجهها وعنقها ، تطلعت الى جهاز التكييف بازدراء شديد ، علّ عطلاً أصابه ! فأصبح عديم الفائدة . ازاحت باصابعها خصلات شعرها المبتلة ، وقد تموجت فوق جبهتها الحاسرة .. بتراخ وانبساط ..

.. صفقت الأم وهى تصلى فى الناحية الشرقية من الغرفة وقد افترشت مصلاّتها . خبطت على فخذها ، واتبعت ذلك باشارة من سبابتها نحو الصغيرة التى كانت تحاول الوصول الى شيء ما فوق « التلفزيون » رددت الأم بصوت غاضب (الله اكبر .. الله اكبر) ..

قطّبت الأم ما بين حاجبيها ، وما لبثت أن بسطتها وراحت تتم صلاتها !! نظراتها المختلسة تلاحق ثريا وهى تعود الى جوار الراديو . المذيع يواصل سرد الاسماء ، دون أن يبتلع ريقه ، وثريا ابتلعت ريقها الجاف للمرة الخمسين . ضربات قلبها تزداد متعانفة ! الوقت يمضى .. والخوف والقلق يسودان جو المكان .

.. الاحلام والآمال .. آماس فائتة لا تؤوب . أراض أحلامها مجدبة . وإن كان فيها لعقة من ربيع ! حزنها جاء ملفوفا في ورقة . بل حظها تكفن فيها ، الحزن ينتصب في قلبها كشجرة سرو كبيرة . لن تئد أحلامها لمجرد الفشل في أول تجربة . صحيح أن الذين نجحت تجاربهم كثيرون ، إلا أن الذين باءت محاولاتهم بالفشل الذريع .. ليسوا على القلة . بحيث تجد لنفسها العزاء !!

.. تبّاً لتلك الرغبة الصابئة ، كيف أثمر لقاء غير متجانس (بوجد) ، كيف ؟! إن الأرض الجرداء المقفرة لا تنبت الزرع الأخضر ولا الكلأ ! لقد صفعتها الورقة بعد ثلاث سنوات عجاف ، والحزن بها .. إنها عاشت حتى اللحظة التى تسلمتها بيدها . وزبد الحزن لا يذهب جفاء .

.. الزواج فردوس راود خيالها ورغباتها كأى فتاة ! الأحلام والآمال .. خيالات ترسم صورا زاهية له في ذهنها ! الأمل والحب والرغبة والسعادة ، وكانت هناك رغبة خاصة في نفسها ترغمها على أن ترتمى في أحضان أى رجل يتقدم لخطبتها .. لأنها كانت تريد الابتعاد عن أخٍ متسلط متحكّم في حياتها بصلف وجهل .. تولّى أمرها بعد رحيل أبيها عن الدنيا . ولكنها بزواجها من الرجل الذى اختاره أخوها ، كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد كان زوجها من طينة أخيها وعلى شاكلته . لقد انساقت بالزواج منه الى قدر محتوم لا مفر من مواجهته ..

.. بكت من أجل ورقة طلاقها بكاء اهتز له كيانها وجسدها . لا لشيء سوى أنّ تلك الورقة ستبقى ما عاشت وصمة شائنة . إن الطلاق ذاته مشكلة ، لأنها ستكون في نظر الناس .. وعلى السنتهم ، امرأة مطلقة . ويكفى هذا ليكون جحيما لها وعذابا . وأسلمت مشاعرها وأحاسيسها لحزن دفين . ولاذت بالصمت صابرة .

..المذيع مازال يتلو اسماء الناجحات .. نبيلة .. نوال .. نازك .. وهى لا تكترث ، (منازل جدة) ذلك ما ترقب سماعه ، حنت رأسها والتقطت « بنسة » سقطت منها ، وأرادت تثبيت شعرها بها . ثمرتان ناضجتان بدتا معروقتان فى صرة شفافة ..!

.. لملمت شعرها خلف رأسها .. وتطلعت الى أمها التى أزاحت غطاء رأسها فبدا شعرها الأشيب المسبسب . عيناها مغمضتان فى خشوع ، وفمها يتمتم بالقرآن والاذكار . جسمها يهتز جيئة وذهابا . كأنها فى « مولد » !! مسكينة ، لا حول لها ولا طول . لكنها لا يمكن أن تكون لابنتها كارهة ، فهى ابنتها ، لكن موقفها من مشكلتها ليس عادلا . إنها تقف الى جانب أخيها ـ منذ أن بدأت المشكلة ـ ولأنه رجل .. فهو دائما على حق .

ـ أمى !!

ـ إنها الحقيقة ، لا تجادلينى .

تريد أن ينصفها الزمن لتجد فى يدها ورقة رابحة ، فهى تبحث عن حائط متين يسندها ويُظلها :

ـ (لا أدرى كيف لو أن نجاحى .. ورقة خاسرة .. و ..)

إنها تحلم .. والحلم أرضه مجدبة ـ على الأقل فى البقعة التى تعيش عليها ـ جافة ومتشققة ، وإن كان فيها لعقة من ربيع !!

.. خاضت أيام الامتحانات فى جو مشحون ، وفى ظل ظروف قاسية .. صعبة ، تخطت خلالها الكثير من العوائق والمضايقات ، وتغلبت على مشاكلها بالصبر والأناة ومسايرة الأمور . فمن أجل الورقة الرابحة التى تتأمل أن تنصف بها ، يهون كل شيء ... تريد أن تطل على الآفاق البعيدة بالأمل المشرق ، تريد أن تشرق فى عينيها الشموس المقبلة فى الغد ، وقد تذرعت بما يعينها على مواجهة الحياة وما يخبىء لها القدر ، والشوق

للفرح بأيام المستقبل المشرق تتفتق له الاذهان وتزدهى . وهى تحس فى هذه اللحظات المؤثرة والحرجة ، أنها على شفا جرف هار ، وأنها تمسك بخيط أوهن من خيوط العنكبوت !

.. نصل ملتاث يلج داخلها ، كلما تذكرت الأسلوب السىء الذى ينتهجه أخوها تجاه ابنتها « وجد » .. إنها أملها الوحيد .. وحبها الدائم .. وكل شىء بالنسبة لها ! فهى العزاء الوحيد للسنوات العجاف التى عاشتها ، وهى تستطيع الصبر على كل شىء لكنها لا تستطيع مع الإساءة الى صغيرتها صبرا ولا جلداً . ديمومة السعادة بانتظار شموس الغد ، تبقى مشرعة أجنحتها فى رفيف رائق ، مادامت « وجد » معها ، ومادامت ورقة « التوجيهية » المنتظرة فى يدها ..

.. نهضت الأم بتثاقل شديد ، خطت خطوات ضالة . ارتكزت بعدها بكلتا يديها على مقعد قريب . ساقاها تنوءان بحمل ثقيل . اتجهت بنفس الخطوات صوب النافذة . لمظت شفتيها بقرف ، وبسرت وجهها ، ثم التفتت الى ابنتها وهى مستاءة . اتجهت نحو الردهة الخارجية ، بعد أن انتعلت خفاً رقيقاً ، وبحركة آلية رفعت بكفها نهدها الضخم المتهدل ، ثم حكت بسبابتها غادة رأسها ، وغابت فى الخارج !!

إن « ثريا » تتصبَّر بما لديها من حلم ، أحلامها المختزنة ترسم لها صورا زاهية ، والخيال متعة المحرومين . تريد أن ينصفها الزمن بورقة رابحة تحقق لها الحلم أو حتى جزءاً منه .

مازالت تصغى . المذيع يسرد الأسماء سرداً يأخذ شيئاً من الفتور ، تموسقت نبراته ببحة تعب وارهاق . صدرها ضاق بأزيزه المتواتر . أعصابها مشدودة ، الحلم يضاجع خيالها السادر فى غياهب الغد .. بعيداً عن الآماسى القاسية . وهى تحلم .. وتحلم . والأمر قبضة فى الماء حتى الآن .

.. العرق يبلل جبهتها وعنقها البض الفارع ، مسحت بمنديل الورق وجهها . عيناها مبثوثتان فى كل الانحاء . نهضت فزعة .

ـ وجد !! أين وجد ؟!

.. أسلمت الصغيرة جفنيها لنوم عميق فى إحدى الزوايا . احتضنتها .. وكأنها تحتضن الحلم، ضمتها فى لهفة شديدة ولثمت خدها . أغمضت عينيها والمشاعر والأحاسيس فى داخلها تصطرع . وضعت صغيرتها على إحدى الارائك ! وقفت وأصلحت ثوبها الوارس المنحسر عن ركبتيها .. وسحبت « بنسة » شعرها ونفضته بحركة لولبية . وعادت تصغى الى الراديو .

.. أقبلت الأم فى مشِى وئيد . شىء ما فى قدميها تعانى منه ألما . وبحركة آلية رفعت بكفها نهدها الضخم المتهدل .. وحكّت بسبابتها غادة رأسها .. وانكفأت على الأرض معتمدة على يديها ، وهى تحاول الجلوس . جلست على الأرض وهى تلهث جاهدة . وثبّتت النظر الى ابنتها ..

ـ أخوكى « حامد » .. سيتأخر فى عودته . أعدى له عشاءه قبل أن تنامى .

قالت الأم ذلك وهى متؤوبة ، ووضعت مصلاّتها تحت رأسها كوسادة ، وتثاءبت حتى ارتج رأسها .

ـ من عادته .. التأخر كل ليلة ، وقد أعددت له كل شىء . حتى ملابسه ليوم غد .

.. انتفضت ثريا ، ضربات قلبها تزداد متعانقة ، الشبق يلهب أحلامها ، أحست بغشاوة تظلل عينيها ، عرقها يتصبب بغزارة ، مسحت يديها المعروقتين فى ثوبها ، صمت يلجلجه الخوف ، وخوف يصارعه الحلم . لقد قال المذيع « منازل جدة » المشاعـر فى داخلها تصطرع ، العرق ينضح فى جبينها وعنقها البض الفارع . لحظات حرجة ، إنها تحلم .. وبين الحلم والحقيقة خيط واهن أوهن من خيوط العنكبوت !!

.. الرعشة تدب فى أطرافها ، رعشة الخوف والقلق ، الخوف من ظلمة المجهول ، والقلق من أجل إطلالة الشموس المقبلة . صدرها يرتفع ويهبط فى ثورة واضطراب ، العرق ينضح ، الحنين يلهب الاحلام البالغة ، مسحت بيدها العارية .. العرق الناضح فى وجهها ، الخوف من الفشل يراود تفكيرها ، والجفاف مساحاته شاسعة يصعب اجتيازها ..

.. واختنقتها العبرات .. صرخت وهى تقفز من مقعدها .. بعد أن ذكر المذيع اسمها من بين الناجحات ، ولألأ الدمع فى عينيها لقد أصبح الحلم حقيقة !! وفازت بالورقة الرابحة ..

بكت « وجد » فى مرقدها احتضنتها بفرح ، الدمع يمتزج بالعرق ، مواسم الشمس تقبل مشرقة فى عينيها ، ذهنها طافح بالأمانى ، والغد ملىء بالمفاجآت !!

.. تربعت الأم .. ورددت بفزع :

ـ ما الأمر .. ما الأمر ؟!

فر الدمع من عينيها .. وبكت حين علمت بالخبر ! حكّت أنفها بكفها ، وفتحت ذراعيها لابنتها والفرح حقيقة مزروعة فى عينيها الناعستين .

* * * *





حزن امرأة مهزومة

أُويت الى فراشي مبكرة على غير عادتي بعد أن أخذت كبسولة مهدئة . ما أكثر المهدئات التى اتعاطاها هذه الأيام . عادة سيئة اضطررت للادمان عليها بسبب ازمتى ، بل محنتى ! المهدئات تريحنى كثيرا . اعصابى المتوترة لا تهدأ الا بكبسول او اثنين .

.. نفضت شعرى الذى لامست اطرافه كتفيَّ العاريتين قبل أن أدس جسدى المنهك فى الغطاء ، الأفكار السيئة تداهم خيالى المتقد . اطفأت ضوء المصباح الذى قربى وغرقت فى ظلمة دامسة موحشة !! الظلام يساعدنى على نسيان الحالة التى تؤرقنى ، هذا ما اعتقدته .

.. تقمصت روحا انهزامية . الأيام تواجهنى بالواقع المرير وأنا عاجزة عن فعل أى شىء . أقسى ما تصطدم به المرأة فى واقعها أن تطعن بالخيانة التى لا تستحقها . كل الدلائل تؤكد لى صدق ما توقعت واعتقدت تجاه سلوكه . ظنونى لم تخب ! لا ينقصنى الا الشاهد الملموس لفضح خيانته . ليست قسوة منى أن اكرهه ، فالحقد عليه قليل . ليتنى أكتشف الليلة كذبه وخداعه وسفالته !

.. سألجأ لتعريته من الثوب الزائف الذى يرتديه . فضحه مقصدى ، فاذا كنت فى نظره حتى الآن طيبة وساذجة وصابرة ، فسيكتشف أننى لا أقبل بالهزيمة مستسلمة ولا ازدرد قهرى كمن غُلب على أمره . المرأة لا تحس بالهزيمة الحقة إلا عندما تجد أنها هُزمت لاجل امرأة أخرى تقل عنها فى كل شىء . إنها ليست غيرة فلو أن شعورى هذا نحوه غيرة لكان معنى ذلك أننى أحبه . ولكنى أكرهه ، وأتصيد فرصة النيل منه . يكفى

حزن امرأة مهزومة

أننى قبلت الزواج منه بما فيه من عيوب ، هل يفقد الحسنة الوحيدة التى يمتلكها ؟! ولا أدرى اهى أصلا كانت لديه ؟! .. أم لا ؟ ولا أدرى كيف قبلت الزواج منه وتحت أى ظرف من الظروف ، فقد كانت لى كأى فتاة الكثير من الأحلام والآمال ، لكنه قدرى ولا مفر من القدر .

.. سأعمد الى كشف خيانته لى .. ساواجهه بسلوكه السىء ، حتى لا يظن أنى مغفلة وساذجة ، وحتى لا يعتقد أنى لا أعرف شيئا عن مغامراته الدونجوانية . حقيقة أن الظنون تبقى ظنونا حتى يثبت الواقع عكس ذلك ، لكننى واثقة من أنه سىء .. وقبيح .. ودنىء حتى الثمالة .

.. دسست نفسى منكمشة تحت الغطاء السميك وقلبى يلوع ، ضربات قلبى تطرق آذانى كأنها وقع أقدام لقادم غريب يريد الشر لى ولحياتى . هاجس موحش يتجاوز أسوارى بازيز متواتر . كآبة مخبتة تغلف نفسى كأنها غلالة سوداء . لا اهنأ حتى بالدفء المصطنع . اننى ابحث عن حضن دافىء يعوضنى الحنان المفقود .. والحب الذى حُرِمت منه . إنه قدرى ، ذلك الذى صيرّنى الى هذه الصيرورة الهازمة .

صراع يحتدم فى داخلى بضراوة ، وهاجس خبيث ينهش فكرى . ايقنت أنى امرأة مهزومة . لكن .. سوف لا اقبل بهزيمتى مستسلمة . الصرخة تتفجر فى اعماقى كأنها حمم بركانية فائرة . الاحساس بالتأسى والكراهية يسلبنى كل إحساس متغاير .

.. والدموع .. يا زمنى ! لا تطفىء لظى قهرى وهزيمتى . ثمة مخاوف تسبل اهدابها على قلبى . ندت عنى باجفال نظرة متلصلصة . حركة ما بخارج الغرفة ظل قادم تبينت معالمه حين تحرك مقبض الباب ! . تمزق الظلام الدامس بسهم ضوئى سرعان ما اختلط

بظل مارد . جاء كعادته كالحثالة العفنة . السهر يأخذ منه كل شيء . نادى باسمى بصوت خفيض .. ثم بـ « حبيبتى » ! لا يسعدنى قدومه لأرحب به ، كان حضنى يستقبله رغم نذالته حين كنت أجهل عنه كل شيء .

.. أضاء المصباح الذى بالجهة الأخرى من السرير فتبدد الظلام المدلهم بضوء لا تتفسر به الوجوه . تبينت بصعوبة انه يغرس نظراته فى جسدى الملتحف بالدفء . لابد أنه يقضم حواف شاربه باسنانه .. ، وتأكيدى لذلك نابع من كون أنها عادة تلازمه ابدا .

نزع عنه ملابسه .. فى زاوية غير بعيدة .. الظلام الباهت يستر عنى عورته ، صرير الباب المزعج وسهم الضوء الباهت .. أشياء لازمت خروجه وعودته الى الغرفة فى دقائق . غسل وجهه من الادران التى علقت به ! الصابون لا يزيل النُدُب والعاهات . لم تبد لى منذ اللحظة التى التقيت فيها به .. كنت لا انظر الى خِلقة الرجل الذى قدّر الله لى ان اقترن به روحا وجسدا ، بل نظرت الى خُلُقه وعقله وبصيرته .وقد بدا لى فى تلك اللحظة كالحمل الوديع .. ! وما كنت أعلم أنه ذئب فى ثوب حمل . لقد ازدادت صورته قبحا ودمامة فى نظرى ، بعد معرفتى لحقيقته . لم الحظ قبل ذلك أن له أسنانا صفراء متعفنة .. ولم الحظ ضيق عينيه ولا رائحة جسده النتن . نزع القناع الجميل فى عينىّ ، فبقى وجهه على حقيقته .

إننى اهرب منه .. ومن نفسى .. ! فأنا زوجته وتربطنى به علاقة يدنسها رغم دمامته .

اهتز السرير .. فاهتز جسدى . تحرك مرة ومرتين .. واصدر ازيزا متكررا ضاقت به نفسى . تمنيت لو أن الغطاء لى وحدى . حاجتى للدفء مشبوبة بحنين مقهور ، لكننى انفر من جسده المستهلك .. كما تفر الطيور الفزعة . قرّب أنفاسه المتلاحقة منى .. وكأنه أراد التأكد من أننى استغرق فى نومى . تمنيت لو ملكت شيئا من الجرأة لابصق فى وجهه واستريح ..

حزن امرأة مهزومة

.. « حياتى »

قالها بصوت خفيض . فرجت شفتى هزءاً .. ، كم كنت أعيش ثملة بها . كم كانت تنسينى كل شىء لمجرد أنه يغدق علىّ بها بالكثير من الحنان الذى كنت افتقده . فقد عشت حياة مترفة فى كل شىء إلا فى الحب والعاطفة كنت أعيش فى بيئة فقيرة من كل هذا .. ، أرضها جرداء .. والعطش المزمن يشقق الافئدة .. ، قهر السنوات الاولى مازالت آثاره مترسبة فى داخلى .. جرح قديم أشعر ان آلامه تتجدد .. ، جاء هذا الفاسق لينكأ لى جرحى ، أيقنت أنى خُلقت لاعيش به .. ولادفن به ..

أحببته فى أول الأمر لانه منحنى الحنان الذى كنت افتقده . كأنى ادخرت له كل الاحاسيس المختزنة فى اعماقى الحزينة . رغم الفرق الذى بينى وبينه ، كنت أشعر بالسعادة فى منأى عن السنوات العجاف التى عشتها مع أبى وزوجته المتسلطة عليه . الناظر إلى كلينا .. لا يملك إلا أن يقول « أين الثرى من الثريا » ..

.. ورغم ذلك احببته ، فقد وثقت أن الجمال ليس من صفات الرجال . الجمال قشور . كنت أبحث عن حنان صادق .. عن عاطفة تنسينى أيامى الماضية وآماسى القاسية . أبحث عن ظل احتمى به .. وصدر يُدفىء ارتعاشى وخوفى وتعطشى . ولكن ...

حزن .. وقهر .. وانهزام ، أحاسيس متاوجة تصطرع فى اعماقى . تمزق داخلى .. تبدد آمالى واحلامى وتسلمنى ليأس قاتل . فكرى ملوث .. يحُقِّر فى نظرى كل الرجال . خيانته لى لا مبرر لها . إنه يحطمنى ويوجىء قلبى ، بعذاب لا استحقه . ايقنت أنه مريض ، فالخيانة مرض يُبتلى به الرجال السفلة الذين من طينته .

دقات قلبى تهز جسدى تحت الغطاء . صمت مخبت .. وهدوء مخيف . شعور بالخوف والقرف ينتابنى . سأحطم كل شىء .. الليلة ستكون النهاية لكل شىء ..

انحسر الغطاء عن ساقى .. تململت على الفراش مضطربة .. لامس بيده الخشنة زندى .. واشحت بوجهى عنه للناحية الأخرى .. تصنعت الاستغراق فى النوم . اقترب بانفاسه التى تقيأت لها نفسى . فلول فمه الملوث بالنيكوتين .. يحفزنى على ان ابصق فى وجهه .. ! دنىء الامس بقدمه قدمي ، كأنه متأكد من اننى سأستجيب لرغبته .. ، كما كنت افعل حين كان الحب يُعمى بصيرتى .. وقبل أن أعرف حقيقته .

اللحظة تستنزف حزنى ، مباهجى تتساقط كأوراق الخريف .

.. بتّ أكرهه ، لا يؤنسنى قربه .. ويسعدنى بعده . مازلت امارس نوعا من الدفاع المستميت . أشعر أننى ضعيفة بكل شىء يحيطنى ، ظروفى .. وحالتى .. ويأسى . أرنب برىّ يصارع أسدا كاسرا .. ، لا نجاة !!

.. لكنى .. سألجأ لا محالة لكشف خداعه وخيانته .. لتقوى شوكتى ويكبر حجمها . لأجد أمامه الجرأة للامساك به من نقطة ضعفه . شىء من القوة استمده لنفسى .

الصمت ساد ، ابتعد بوجهه عنى .. بعد أن لوَّث الهواء المحيط بى .. برائحة فمه وجسده !!

ـ « مؤكد أنها نامت »

سمعته يهمس بذلك .. وهو يتمدد على الفراش ..

خَيّم صمت مخبت لبرهة .. اعقبه ضوء خافت ملأ حيز الظلام فى الغرفة .. سكون لا تشوبه إلا ضوضاء مكيف الهواء . الظلام يختنق بضوء باهت يشيع فى ارجاء الغرفة وينساح فى جنباتها .. سمعت صوت زحف لقدم .. باب الدولاب يُفتح ..

.. صمت مخبت .. ، وشىء ثقيل يجثم فوق جفنىّ .. ! كأننى ساصاب باغماء . حفيف ورق .. ورعشة خفيفة .. لجسدين صلبين صدر عنها صرير ..

ساد الظلام .. وسبحت بعدها فى غيبوبة .. ! شىء ثقيل جثم على جفنيّ . فلم اعد أعـى بشىء .. وافتقـدت الاحسـاس بكل شىء حولى .. ، مادت الارض من تحـت جسدى .. وسبحت فى عالم غير الذى كنت فيه !

* * * *


R



غثاء السيل

أخذ يقلب صفحات وجه المدينة بقرف . انفه مشبع برائحة الرطوبة ، الضوء يعلو هامات الشفق .. مودعا قبل أن يبتلعه الظلام ! بدا له وكأنه يطل من على سنام جمل .. البحر هادىء مستكين وهو يقود سيارته اليابانية فوق « كبرى الاربعين » الزحام يخنق المنطقة ، ثبر اللحظات التى يعانى ، عبء الحصول على موقف لسيارته يقلقه ويضايقه ، فيما كانت الخواطر فى ذهنه تنثال انثيال العرق اللزج على وجهه ..

- (يعينكم ربى ، اهل السيارات الامريكية)

قالها وهو يتفحص سيارته الصغيرة بنظرات خاطفة .. بدا مزهوا بها .

تلكأ فى سيره ، بحث بنظراته اللّاحة اطراف الطريق ، كيف له ان يحصل على موقف واحد وامامه اكثر من عشر سيارات يبحث اصحابها عما يبحث عنه . ابواق السيارات كأنها تُنفخ فى أذنيه ، لعن للمرة الاربعين الظرف الذى يعيشه . والذى اجبره على النزول الى وسط المدينة ! كم تمنى فى لحظته تلك لو يقذف بسيارته فى عرض البحر ويستريح . هنيئا لهؤلاء الذين اوقفوا سياراتهم واطمأنوا يقضون حوائجهم على مهل ، فلا شىء يجبرهم على العجلة .

- (أنانية ! اهو الله يعين !!!)

قالها وهو يتجمل بشىء من الصبر . رائحة العرق تفشت من جسده ، انفه مشبع برائحة الرطوبة (الرفاهية مفقودة فى سيارتى ، لا شىء يغرى ولا يريح)

غثاء السيل

قال ذلك بصبر نافذ ، وضيق ظاهر . جسمه فتر فتورا أحس معه بالضعف الذى يجتاحه . حركة السير فاترة . ما الامر لا يدرى ! لاشك أنها المنطقة التى يقولون إنها « عنق الزجاجة » أحس كأنه يسوخ بنفسه فى الوحل !

- (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. يا صبر ايوب)

أخرج من جيبه ورقة صغيرة تبللت بعرق يديه ، القى عليها نظرة عجلى ، زم بعدها شفتيه باستياء شديد .

- (هل كان لابد من الوقوع فى ما انا فيه ؟)

ابتلع ريقه قهرا ، عرقه كالماء السائب على جسده . الجو يخنقه ، وحركة السير متجمدة .. ، (هه ! لبان شحرى ، ومستكى ، ومن وسط المدينة)

قالها فى نفسه وهو يدوس على مكبح سيارته ، بعد ان تحركت خطوة واحدة . كأنها تحركت لتقف . القهر مفضوح فى ملامحه ، خاست نفسه الممتلئة سخطا وقرفا . الافكار والوساوس تعربد فى داخله ثائرة .

- (ولا موقف ! لو كنت على دراجة لما وجدت لها مكانا هنا)

السيارات تتحرك فى بطء شديد ، كانت كغثاء السيل ، خُيل اليه أن سيارته قشة تسبح فى ماء آسن مليء بالحجارة والمخانق والحفر !

الليل آخذ فى الاسوداد ، ساعة ونصف الساعة وهو لم يتحرك سوى بضعة مترات ! لو قضى مشواره راجلا .. لكان فى بيته الآن .

ثبر اللحظات التى يعانى مرارتها بشيء من اليأس . الموقف اصبح خارجا عن طاقة احتماله ، لابد من التصرف ، والا فلتت اعصابه من زمامها . سيوقف سيارته كيفما اتفق ، حتى ولو احتاج الأمر للوقوف خلف سيارة اخرى ، انجاز المهمة التى جاء من اجلها هنا ، لا يحتاج سوى دقائق قليلة . قرر ذلك فى نفسه ، والعرق يبلل وجهه وغترته المتجعدة . ولم

تمض لحظات حتى نفذ قراره .اندرأ عن بعد جندى المرور قبل ان يخرج من سيارته ، اشار له بيده أن يتحرك من مكانه ، واكد بحركة مكوكية من رأسه بعدم موافقته على وقوف سيارته فى المكان الذى وقف فيه .

اغلق سيارته بيد اصابها الارتعاش ، واتجه نحو الجندى ، وهو يندب حظه .

- (لن اتأخر ، دقائق قليلة ، اقضى خلالها حاجتى من السوق ! ..)

قال ذلك مستجديا رجل المرور وهو يمسح عرق جبينه بكفه الخشنة ..

- (ولا دقيقة واحدة)

رد عليه الجندى ، وهو يحُكم بيديه حركة السيارات الجارفة ، واردف قائلا :

- (الكل يقول ذلك ! لن اصدق احدا منكم بعد الآن)

(صدقنى لقد تعبت كثيرا ، زهاء ساعتين من الزمن وأنا اعانى . صدقنى مشوارى لن يستغرق سوى بضع دقائق ! إذا تأخرت افعل ما بدا لك ، ارجوك !)

وابتسم الجندى دون ان يلتفت اليه ، ثم القى عليه نظرة عجلى .. وهز رأسه ! كأنه اشفق عليه .

- (شكراً)

قالها ، وأسرع فى عدوه نحو السوق . إلتقط انفاسه بشىء من المعاناة - قاتل الله الدخان - اكد لنفسه أن المشوار لن يستغرق سوى دقائق كما ذكر للجندى ، وسيفى بوعده له . (إنها بضع خطوات لا أكثر ولا أقل)

مشاهدته لمن يراهم من المتسكعين فى السوق ، تحسسه براحة القلب التى يعيشونها ، فهم اما أن يكونوا قد امنوا جانب الوقوع فيما وقع فيه ، بايقاف سياراتهم فى مواقف مأمونة ، واما انهم لا يملكون سيارات اصلا ، وهؤلاء هم السعداء والمرتاحون .

حلقه جاف .. وأنفه مشبع بغبار الطريق ! كم يود لو يملأ جوفه المتشقق بشيء من العصير أو المياه الغازية التى يمتلىء بها هذا الدكان .

ـ (لا وقت عندى ، هناك ما هو أهم ، انهى كل شيء . واشرب براحة)

الخوف والمعاناة والقهر لا تدع له مجالا للاستمتاع بهذا النوع من المتعة . قدماه متورمتان . السير على عجل يتعبهما ، ألم كأنه الروماتيزم ينخر عظم ساقه ، كيف لا يعانى هذا الألم وهو قد داس على مكبح السيارة وضابط تغيير سرعتها اكثر من مئة مرة !! القى التحية على رجل اعتقد انه يعرفه ، وافترش ابتسامة متكلفة باهتة على وجهه المكدود .

ـ (لبان شحرى ، تجده عند العطارين فى العلوى)

أول صفعة تواجه مشواره المنكود ـ

ـ (لا تتعب نفسك ، لابد من الذهاب الى العلوى)

هذا يعنى أن المشوار قد طال ، حاول ان يعدل عن الأمر ويعود ادراجه من حيث أتى (وان شاء الله عمرنا ما اشترينا لبان شحرى ـ) وجاءه صوت زوجته فى رنة حزن يطرق آذانه :

ـ (سعال الصبى سيء جدا . لابد من احضار اللبان الشحرى)

(لابد .. لابد)

صمم على الحصول على هذا اللبان الذى يشفى صدر ابنه . لقد اورثته اللحظات التى يعانى هما كبيرا ، ونفسه تغريه بالتراجع والعودة اكثر من مرة ، والوساوس تعربد فى داخله فى عصيان فاضح وتعيد لاسماعه صوت الجندى الذى وعده بعدم التأخير :

ـ (الكل يقول ذلك ، لن اصدق احدا بعد الآن)

خاست نفسه كما تخيس السمكة فى البنقلة ! سيسرع فى الخطى حتى ينجز ما وعد ، حيث لا مفر من الصعود الى (العلوى) واحضار اللبان !!

* * * *

انبسطت اسارير وجهه ، وهو يحمل بين يديه قرطاسا كبيرا مليئا بكمية من اللبان الشحرى ، ولكن فرحه محدود حيث مازالت الوساوس والمخاوف تحاوره ، قلبه مقبوض ، مشواره تجاوز الساعة (إنها دقائق على كل حال . حتى ولو تجاوزت الساعة ، فهى خمس وستون دقيقة على اسوأ الظروف) طمأن نفسه ، وهو يسرع فى سيره . وجهه مبلل ، احساسه بالضيق ، ليس لأنه يعانى من مشوار طويل ، بقدر ما يعانيه فى داخله ، العرق يتفصد فى كل جسده ، قطرات العرق تسرى فيه كما يسرى النمل !

وقف على حافة الطريق ينتظر فى قلق ، لو تقدم خطوة لاصبح غثاء لسيل السيارات الهائجة المائجة (اعوذ بالله . ارجو ان يمر هذا المساء على خير وسلام)

قال ذلك وهو يحس بغصة فى حلقه . بعد مشاهدته لسيارة مسحوبة (بونش المرور) .

- (مسكين صاحبها ، سوف يعانى اضعاف ما عانيت من اجل استرجاعها ، فالبحث عنها مشكلة) اضطرب قلبه فجأة ، أخرج منديله المبلل من جيبه ، وحاول فى يأس مسح عرق وجهه ، انفاسه المحمومة تخنقه .. القهر والخوف يستوليان عليه ..

غثاء السيل

ابتلع ريقه .. وقلبه زائغ .. تفكيره يقوده الى استنتاج نهاية مأساته ومعاناته !!

لقد صدقت مخاوفه ، سيارته اختفت ، هى ليست فى المكان الذى تركها فيه ، حاول العثور على رجل المرور الذى كان يقف قريبا منها ولكن دون جدوى ، اسوّد الليـل اسودادا يصعب خلاله تفسير الوجوه والاشياء ، انوار السيارات تسطع كالنهار .. واضواء الشوارع باهتة مخنوقة . . وقف كالسنف الـذى تعصف به الريـح من كل جانـب .. القرطاس مازال فى يده ، كم كان يتمنى لو يلقى به فى وسط الشارع . ولكن مأساة واحدة تكفى .

اغمض عينيه ، محاولا استرجاع شيء من اعصابه المهدودة ، واخذ يسترجـع قواه بانفاس محمومة وقد اصبحت سيارته أثرا بعد عين .

* * * *



عرف الديك

(قامت) بجسمها البض ، المكتنز الأرداف ، خطت فى مشى وئيد صوب النافذة ، وأطلت من خلال زجاجها الذى كان يعلوه الغبار ، بوجه طفلى إكتسى بغلالة قاتمة ، ارتسمت على قسماته الدقيقة بوادر قلق ظاهر ، كان شارع الميناء خالياً من المارة والسيارات ، حتى الكلاب المسعورة كان نباحها يأتى من بعيد ، أصبح الشارع أكثر استطالة عما هو عليه ، رغم أنواره الجانبية الخافتة ، وصوت سيارة نقل مارقة .. وأخرى بعد لأى تقبل من الجهة المعاكسة للشارع فيتبدد السكون المخيم لبرهة . الليل قد انتصف أو يكاد . السماء صافية تلتمع فيها النجوم بشكل غير معهود ، ضوء برج المياه العمودي يخترق عنان السماء ، وكأنه يتجه لمصافحة النجوم المتلألئة .

.. عادت من عند النافذة فى ذات المشية (الهَوْدَجِية) ، ولملمت شعرها .. وجمعته خلف رأسها فى شكل (كعكة) وقلبها يلوع ويحترق ! تحركت شفتاها بكلام غير مفهوم ، كان مشبك الشعر بين أسنانها ، ثم عادت وكررت ما سبق أن قالته ، بعد أن ثبتت بالمشبك شعرها المُزَيَّت :

ـ ما أدرى ايش اللى أخّر أبوكى ؟

قالت ذلك وهى تحشر جسمها حشراً فى مقعد من خشب البمبو ، كان قريبا من النافذة ، بينما كانت (عفاف) ابنتها الكبرى تتابع باهتمام حلقة أجنبية من أفلام رعاة البقر ، كان صوت أمها أعلى من صوت حوار الممثلين ، انهمكت عفاف مشدودة لشاشة التلفزيون ، كان وجهها قد بدا جميلا من خلال الاضواء الملونة التى كانت تنعكس فى

وجهها من شاشة التلفزيون ، كان كوجه مانيكان فى (فترينة) تنعكس فيها ألوان زاهية شفافة . ضوء الغرفة خافت ، والجو مشحون بسكون مأتمى . خلال لحظات قاتمة .. قالت عفاف وهى مازالت مشدودة للفيلم .. وكأنها لا تكترث لقلق أمها :

ـ أنت دائما تقلقى على أبويا ، وأنت عارفة فين بيروح كل ليلة ؟

صمتت برهة .. وابتلعت ريقها بالقهر وتابعت :

ـ الشى اللى نِعَتاد عَلِيه ، ما فى داعى نشغل بالنا بيه يا أمى !

والتفتت الى أمها .. لتبحث عن أثر ما قالته فى وجه أمها . كانت المسكينة قد نامت . ورأسها يتراقص فوق كتفيها كما يتراقص بندول الساعة ، لقد أسلمت جفنيها الناعسين للنوم ، بعد أن أضناها التعب والاشفاق والقلق ! تطلعت اليها عفاف بعين الاشفاق ، وأحست بغصة فى حلقها .

.. مسكينة يا أمى ، حياتك قصة يتسابق للحصول عليها تُجَّار السَينما ومنتجوها ! الاذلال لا يعنى الاحترام ، والحياة الزوجية رباط مقدس ! إنها بلاشك كانت ضحية أمها فلا بد انها علَّمتها كيف تتقن ذلك الخضوع والطاعة العمياء تجاه زوجها بلا حدود . فعاشت مع زوجها ـ الأسد الغِضَنفر ـ حياة قاسية كان المُرُّ أكثر ما مر بها . وفى بدء حياتها الزوجية معه عاشت مع أهله كخادمة لا كزوجة ابن ، وكان الخدم أفضل منها لانهم كانوا يتقاضون أجوراً ، حيث ان لكل شيء ثمناً ، أما هى فقد كانت تضحى وتبذل وتحب ، فلا تنال الا العذاب والشقاء ثمناً لما تبذل . لقد كانت أم زوجها إمرأة لا يعرف قلبها الرحمة ، لاتفتأ توغر صدر ابنها ضدها ، أما والد زوجها فقد كانت زوجته مسيطرة ومهيمنة عليه يأتمر بأمرها ويسير برأيها ، وكان زوجها يعانى من قسوة أبيه له ، فيصب عذاب ما يعانيه من أبيه فى زوجته ! مسكينة يا أمى ! يوم جئت الى الدنيا كانت الفرحة تغمر قلبك .. ، ولكن السواد كان يظلل وجه أبى لانه بُشرّ بى . ما أقساه فى حديثه

معك ، كانت يده تحسن الحديث أكثر من فمه ! وحين أنجبت الاولاد الخمسة بعدى ، لم تتغير حياة أبى سوى أنه أصبح لايسيء سلوكه تجاه أمى ، ولكنه أصبح جباراً .. يهابه الجميع ! جدى لامى يقول إنه (يُجعجعُ) فقط !

.. التمعت دمعة بارقة فى عينى عفاف النجلاوين ، وهى تطيل النظر الى وجه أمها وغابت فى فكر غير ظاهر ، كان وجه أمها المتعب قد سكن بخوف طفلى ، مسكينة يا أمى ! وأحست عفاف بنصل حاد ينغرس فى صدرها كأنه طعنة ملتاثة ! ...

.. قلوب الرجال .. قلوب فظة ، غليظة ، تشتد فى قسوتها كلما تشكلت مفاهيم الرجولة فى عقولهم ، وكأن الرجولة شيء لا يعرف معنى الحب والهوى ، لا يعرف سوى صنعة الديك ! بينما الامر غير كذلك .. مطلقا !

ـ (ولكن .. هكذا كل الرجال !) ..

قالت ذلك عفاف فى نفسها .. وهى تمسح برفق أنفها الدقيق بطرف سبابتها ، وكأنها تزدرد الحزن والقهر. علا صوت منبه مزعج لسيارة .. غير بعيد .. استيقظت على أثره الام ..

ـ الساعة كم يا عفاف ؟

سألت ابنتها وهى تخبط بكفها ساقها اليمني الممتلئة .. وأخذت تهرشها بعصبية .

ـ الساعة وحده الا خمسه !

لم تسمع اجابة ابنتها على سؤالها فقد عادت الى نومها ثانية ، وعادت عفاف بوجهها صوب التلفزيون ، والشوق فى صدرها يحترق ، والألم والحزن يصارعان فكرها فقد اصبح منشغلا بحال أمها . وأغمضت عينيها فى رفق ، وفرت من عينيها دمعة حرقت مآقيها ، هزت بأسى رأسها ، وتحركت شفتاها المبتلتان بخليط من الدمع والريق ، وهمست فى قلبها :

« قلب المرأة لِمَ هو ملىء بالحب ؟ يمتص العواطف ويبتلع الاحاسيس الرقيقة كما تمتص الاسفنجة قطرات الماء بينما قلب الرجل اشبه بالغربال ! هكذا كل الرجال » !

قالت عفاف الكلمات الاخيرة بصوت شبه مسموع .. (أبله) عطشان يا أبله) .. جاءها صوت الصغير من الغرفة المجاورة ، نهضت وقد أوشكت أن تتعثر فى ثوب نومها الطويل ، أضاءت نور الغرفة وأطل الصغير من تحت غطائه والنوم يكسر جفنيه .. وقال فى صوت محشرج :

ـ عطشان يا أبله عفاف !

واتجهت اليه مسرعة ومسحت بحنان على رأسه ، وألقت ببقية الغطاء الذى يغطيه على شقيقه الذى انكمش على نفسه ، ثم قبلته ، نهضت واتجهت نحو الباب . وقفت برهة ، وألقت نظرة حانية على أمها التى كانت لا تزال فى مقعدها سادرة لا يعكر صفو نومها سوى لسعات البعوض المؤلمة . وعلى عجل أسرعت الى المطبخ حافية القدمين ، قبل ان تدلف الى المطبخ سمعت صوت أمها الواهن :

ـ هاتيلى كاسة مويه يا بنتى !

وعادت عفاف بالماء لامها وللصغير ، وحين تناولت الام كأسها ، وقفت عفاف أمامها فى قوام رشيق والحزن يملأ قلبها ، وبعد أن تجرعت الأم الماء بصوت مسموع ، لمظت شفتيها ، والنوم يغالب جفنيها وقالت وهى تعيد الكأس الفارغة

ـ هو أبوكى لسه ما جا ؟

واستدارت عفاف فى حركة انثوية .. بينما كان الصغير ينادى (أبله) يرددها بصوت ضعيف .

ـ لسه يا أمى لسه !

(غطت) أخاها ، وألقت نظرة بائسة على الغرفة الضيقة التى تضمهـا واخوتهـا الخمسة ، قبل أن تطفى النور ، فقد كانت تنام واياهم فى هذه الغرفة ، وهى التى من حقها ان تعطى غلافة خاصة بها تفصلها عن اخوانها الذين اصبح أكثرهم فى سن يحلم فيه ويأمل . ومن أين يأتى الحلم الجميل فى غرفة كعلبة السردين . وقبل أن تغلق الباب ، سمعت صوت مفتاح الباب الخارجى ، لابـد ان أباهـا قد حضر ـ الساعـة الواحـدة والنصف ، وتوارت خلف باب الغرفة ومن فجوة مصراع الباب تطلعت الى أبيها الذى أطل بوجهه المتضخم الاشداق .. الكثيف الشارب ، والسيجارة فى فمه يلوكها بين أسنانه كما يلاك المسواك ! وألقى باحرامه الاحمر ، ونفض ما كان عالقا بثوبـه من أوسـاخ ، وتنحنح ، فاستيقظت الام :

ـ أهلا يا أبو محمود أنت جيت لما أقوم أحضرّ لك لقمه تأكلها .

قالت ذلك وهى تحاول اخراج جسمها من بين مقابض المقعد الخشبى .

ـ لا .. لا مالى نفس .. بس !!

وأخذ ينفض يديه .. وينفش صدره كالديك التركى .. وأصدر من حنجرته صوتـا كالزمجرة .

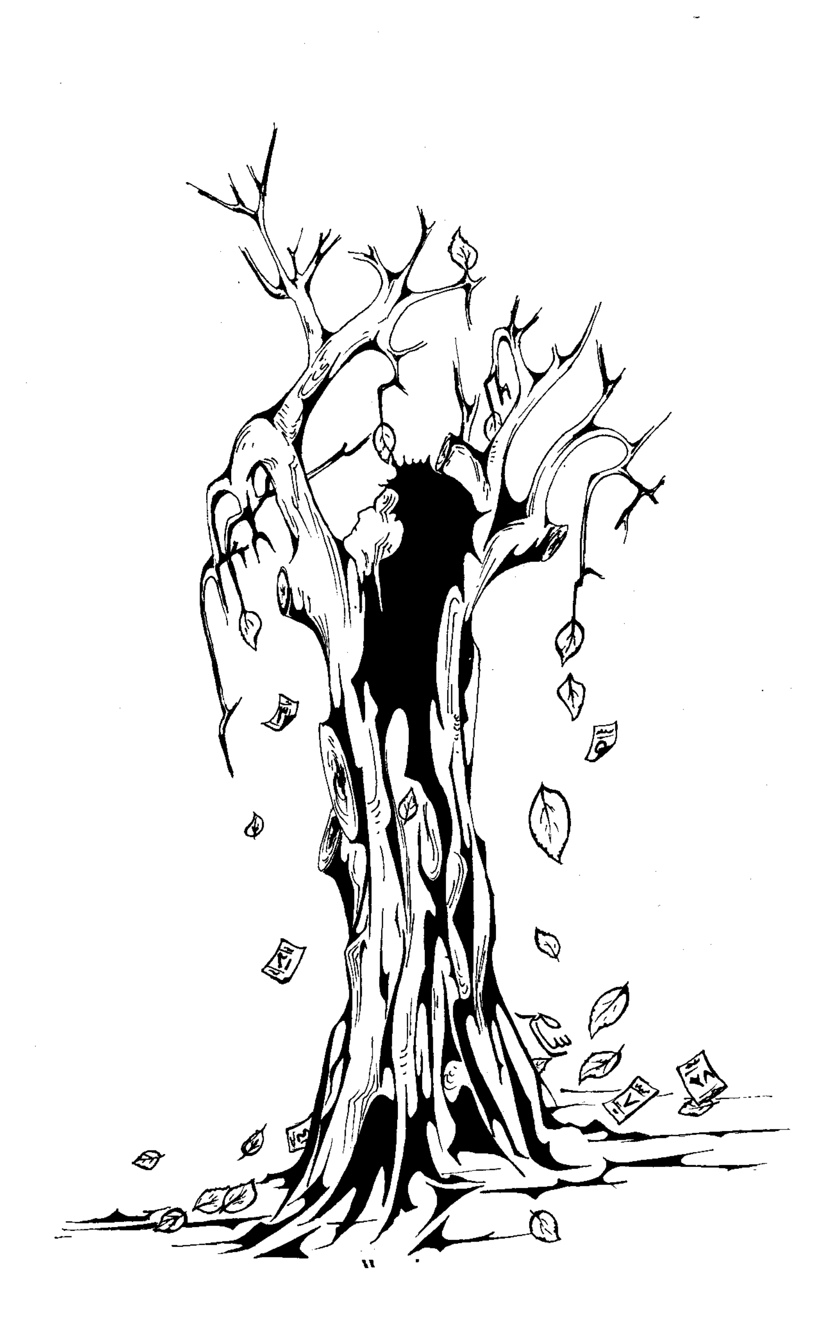
وأطرقت رأسها فى استحياء ، وأوت الى حجرة النوم .. فى مشى وئيد كالدجاجة ، . وأسرع خلفها وكأنه الديك ينفض فى خيلاء عرفه .. وأغلق خلفه الباب ..

فرجت عفاف مصراع الباب ، ومدت بصرها .. كانت الردهة خالية ، والظلام قد أرخى سدوله على البيت ، إلا من ضوء باهت كان يأتى من نافذة الردهة .

.. واستدارت عفاف فى انكسار ، وهى تؤوب الى الرقاد والبيت على سكون مخيم ، كادت تختنق وهى تغلق باب الغرفة التى افسدت الانفاس هواءها .

.. جثت على ركبتيها ، وانكفأت بجسدها النحيل المتهالك ، ودست نفسها تحت الغطاء بين اخوتها ، وانخرطت باكية بصوت مخنوق .

* * * *





وتساقطت أوراق العمر

فى صدرها تصرخ رغبة محمومة فى ان تصفع الزمن .. وتحطم عقربى الساعة المجنونين .. وتمزق بعصبية هستيرية .. ورقات التقويم المتساقطة بلا حساب ..

.. تمنت لو انها قادرة على ان تمسك بزمام الايام فتكبح جماحها ..

« ازاحت بيدها ستائر (المركزيت) الشفافة .. وراعها مشهد الغروب .. الشمس آفلة تنحدر مسرعة خلف الافق كأنها تواكب السباق المجنون .. ! اوحى لها الغروب بما يجول فى خاطرها من هواجس واحاسيس . « يوم يرحل .. ويوم يعود !! »

تمنت لو بيدها وأد كل يوم تطلع فيه الشمس . الايام تمضى والعمر يمضى . ولا احد قادر على ان يقف فى وجه مسيرة الحياة وتعاقب الزمن .. ! المهم فى الأمر ليس مضيها ورحيلها . بل المهم انها لا تمضى دون ان تترك اثرا محفورا فى وجوهنا .. او علامات ظاهرة تؤكد أن العمر يمضى دون حساب .

لقد تخطت العقد الثالث او تكاد ، وعلى مشهد من احاسيسها وخلجاتها .. يمارس الزمن لعبة سباقه .. وورقات التقويم لا تنفك متساقطة كأنها اوراق الخريف الصفراء .. ! والايام .. اقدام لا تتبين خطواتها .. فتطحن فى غمرة ذلك السباق اوراق الخريف الصفراء المتساقطة فى طريقها .

هى افضل من سواها .. كثيرات هن اللواتى فاتهن قطار العمر . فبقين فى بيوت آبائهن عانسات تعسات يغزلن السأم .. ويجتررن روتين الحياة الصامت . انها افضل منهن .. .. تسلك نمطا حياتيا مغايرا ، فهى هادئة متزنة .. لا تتصنع ولا تتكلف ذلك الهدوء

وتساقطت أوراق العمر

والاتزان على عكس بقية « العوانس » . رقيقة .. انيقة ، دون اسراف او تقصير . استطاعت من خلال السلوك الذى انتهجته ان تؤلف حولها مجموعة من الصديقات .. وقربتهن الى قلبها وابتعدت عن مصاحبة العوانس ، لانهن عابسات يائسات يذكرنها بالحال الذى تهرب منه ، فهل تجنى من وراء صداقتهن غير الملل والضجر واليأس ؟ طبيعتها المرح تضحك حتى فى ساعات الألم .. ولا تعبأ بمتاعب الحياة .. ولا تعير ذلك الهاجس الذى يراود فكرها من حين لآخر أي اهتمام ، لذلك لا تستسلم لليأس بسهولة .. وتؤمن بأن الغد سيكون احلى .

بحثت عن السعادة لنفسها فى شفاه الآخرين .. وفى فرحهم . إنها تقوم بواجب لا يمثل الا بالشمعة التى تحترق لتضىء للآخرين . تسعد وتفرح لسعادة وفرح غيرها . بوارق الأمل دائما تشرق فى عينيها رغم كل شىء .. رغم الصراعات الدفينة التى تحاول فيها الغلبة على شيطان اليأس فى نفسها . لتنتصر فى النهاية . وتعود لذلك الاشراق الذى اكسبها جمالا وانوثة لا تنطفىء .

حينما تقع فريسة تلك الصراعات .. يحتدم الجدل الأرعن فى داخلها .. وتتوالد فى ذهنها تلك الرغبة المحمومة .. فى ان تصفع الزمن .. وتمزق ورقات التقويم .. وتحطم عقربى الساعة !! وتنخرط .. باكية .. فتحس بالراحة بعدها . كأنها شجرة تين وقفت بجذعها الصلد فى وجه العاصفة .. فلم يهتز جذعها ولم تُقتلع جذورها .. وإن كانت قد عرَّتها من اوراقها الصفراء .

.. وتعود بعد تلك الحالة .. مشرقة الوجه .. باسمة .. كأنها تولد من جديد .

وقفت فى الصباح .. تتأمل بالفكر ما عاشته فى المساء الفائت ، تأملت العمر الذى انقضى .. وتداعت فى مخيلتها الذكريات . ذهنها مرهق .. وتركيزها مشتت .. تخشى ان تكون هذه النهاية . نهاية صمودها .. ! تخشى ان تستسلم لليأس .. فتعتزل الحياة .. مثلها مثل اى عانس ...

.. صوت يناديها كأنه من اعماق واد سحيق .. ايقظها الصوت .. من غفلتها وحضورها الغائب .. الصوت يقترب .. لكنها غائبة عن ادراكه بحواسها المشتتة . وكيف تدركه والذهن طافح بالذكريات .. والفِكَر ؟

اخيرا تنبهت الى ان الصوت .. صوت (حضرة المديرة) .. ارادت أن تعلمها أن موعد (حصة الانشاء) لصف ثانى اعدادى قد حان . وان جرس المدرسة ـ قد رن وشبع رنا ـ ..

... اخذت حقيبتها الانيقة التى تحتفظ فى داخلها بكراس التحضير .. وبعض اوراق (الكلينكس) الرقيقة ، وزجاجة عطر باريسية صغيرة .. تعبق منها رائحة يعرف الجميع أنها رائحة جسد الابله امنة ..

لقد عادت بخيالها وهى تأخذ طريقها الى الفصل .. الى السنوات التى كانت خلالها طالبة خلف مقعد الدراسة كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، فى ذلك العام تقدم لخطبتها اول عريس طلبها للزواج ، وكان ان قابلت الطلب بالرفض القاطع ، وادرك ابواها انها محقة فى رفضه . وتقدم لها بعد ذلك شاب احست بعدم الميل اليه . لا ترتاح الى شخصيته ، ترتسم على وجهه ملامح غباء فطرى . ايقنت انها لا تجد فى ارضه (المسبخة) .. مجالا تزرع فيه حبها . كان جامدا .. يعتمد على ابيه فى كل شىء .. ليست له شخصية . ورجل كهذا سوف لا تشعر بالدفء والامان فى ظله وفيئه . سوف تطغى بشخصيتها على شخصيته وهى لا تريد زوجا يحمل هذه الصفات ، فرفضته ..

وتساقطت أوراق العمر

.. ويومها ثارت ثائرة ابيها .. وارغى وازبد .. وهدد وتوعد .. واعتقد انها تخفى سرا لم تطلعه عليه .. وساورته الشكوك ..

« ستبقين عانسا طوال حياتك .. ! ولن اقبل بعد اليوم اى انسان يرغب فى الزواج منك هل تسمعين »

.. وكأن ابواب السماء كانت مشرعة ابوابها على مصاريعها .. فتلقت كلمات ابيها .. وكأنها دعاء استجابت له السماء .. وسقط فى يد آمنة .. وصارت الى ما صارت اليه – حتى بعد رحيل ابيها ..

.. إنها تكره الوقوف محدقة فى عيون طالباتها .. إنهن خبيثات .. فى اسئلتهن وحوارهن ولغطهن وهمسهن الذى يشبه طنين النحل . رغم رباطة جأشها .. وصلابة عودها .. كانت تحس احيانا بكثير من الحرج .. حينما تختلط عليها الامور.. فتحس بنصل سهامهن المسمومة تخترق صدرها الى العمق . وينتابها ذلك الشعور الغريب الذى يهزمها .. وتصطرع فى داخلها .. الرغبة المحمومة فى صفع الزمن .. وتحطيم عقربى الساعة .. وتمزيق اوراق التقويم .. أفلت منها الزمام مرة وصفعت احدى الطالبات حين تجرأت وسألتها بخبث ودهاء :

« لا أرى فى اصبعك خاتم الزواج يا أبله ؟ »

.. أحسست بالندم لذلك التصرف الذى اعتبرته خارجا عن ارادتها . فهى تحبهن وهن يحببنها ولا يفضلن عليها أياً من مدرسات المدرسة . فهى مرحة ولطيفة الى ابعد حدود المرح واللطف . وإن كانت تغضب لبعض تصرفاتهن الصبيانية فى اللحظات التى يغلبها إحساس اليأس .. ولكن سرعان ما تعود الى صفائها ومرحها . اما لماذا لم تتزوج .. وهى جميلة وجذابة تطفح انوثة ورقة ؟ فهذه ارادة الله وهى فوق كل ارادة . ولا تؤمن بالخرافات التى ترددها امها من وقت لآخر . خرافات لا يصدق بها مؤمن ! ..

إحساسها الدائم بجمال الحياة .. من خلال نظرتها الجميلة المتفائلة .. يجعل امامها الحياة سهلة وجميلة ، وانها لا تستحق دمعة من دموع الحزن الذى يملأ قلوبنا . لذلك فهى رغم تعاقب الايام .. وتسابق الزمن .. وتساقط اوراق التقويم .. ، الا انها تزداد يوما بعد يوم انوثة وجاذبية .. ! إن ابتسامتها المنفرجة .. تتسع فى شفتيها بالقدر الذى تقهر فيه الزمن وتكيد ورقات العمر المتساقطة ..

لقد عرفت كيف تعطى للحياة .. وكيف تأخذ منها .. بايمان وصبر .. على أمل أن يكون الغد أحلى ـ طال به الزمن ام قصر ـ ولا تكترث للازمات . بوارق الامل مشرقة دائما فى عينيها . رغم كل شيء .. رغم الصراعات الدفينة .. فتحظى بالنصر .. بعد نوبة من البكاء . فيعود لها صفاؤها ويشرق وجهها ببريق لا ينطفيء .

.. نصبت قامتها بجسم ممتلىء .. يبرز مفاتنه رداء وردى انيق .. واتجهت صوب اللوح الاخضر فى الفصل .. وكتبت تاريخ اليوم وكلمة « انشاء » ودونت تحتها بخط واضح اسم الموضوع : « كن جميلا تر الوجود جميلا »

صمتت .. وطال صمتها .. وهى تستقبل اللوح .. ! وايقنت الطالبات أنها تستجمع افكارها لتبدأ فى التمهيد للموضوع ..

... لم يدر بخلدهن أنها تخشى مواجهتهن .. ، ..

وأنها .. تخشى أن يلحظن الدموع اللؤلؤية التى تخضب وجهها .

* * * *







المشوار اللعين

كان أبلغ مايتمناه وهو يقف أمام والده فى هذه اللحظة الرهيبة ، أن يؤجل والده ماطلبه منه الى الصباح ! اوصاله ترتعد ، جسمه الصغير البالغ النحول يرتجف .. كلما علا صوت ابيه ، صوته كالرعد يهز مسامعه ، زاغت عيناه .. الخوف يوغرهما فى جمجمة رأسه ، الوقت بعد العشاء بكثير .. ! بائع الدخان الذى يبيع نوع السجائر التى يشربها والده فى اقصى السوق ! طول المشوار لايهمه . مروره بالمقبرة فى هذا الوقت من الليل هو مايقلقه ويقبض قلبه .. إنها مصدر تخوفه وقلقه ، احساسه بعبء المشوار ، يزداد ثقلا .. كلما فكر بأمر المقبرة ..

.. تناول الورقتين النقديتين من يد ابيه باصابع يضمرها النحول .. ويهزها الارتجاف ! .. تطلع الى امه التى كانت مشغولة بالحياكة ، استجداها بنظرات منكسرة ، يريدها ان ترأف بحاله وتحول بينه وبين مشوار لعين يرتعد له قلبه .. ابتلع ريقه ! توقفت قدما امه عن الحركة ، سكت ضجيج « المكنة » ، خيم سكون كئيب ، تفحصت قطعة القماش التى كانت تحيكها ، وقالت دون ان ترفع النظر عنها :

ـ أليس لديك من الدخان مايكفيك حتى الصباح ؟

التفت الى ابيه الذى مرد على القسوة وصلابة القلب ، وقد انتظر منه جوابا يفرحه ، انتظر منه كلاما ليناً ، لكنه صرخ فى ثورة تطاير خلالها الرذاذ من فمه :

ـ ألم تذهب ايها الشقى ! رأسى يكاد ينفجر ، اذهب ثكلتك امك .

وفر الصبى المسكين هربا ، بعد ان صار الأمر قذى فى عينيه .. منظر المقبرة ـ الذى صمم على غض النظر عنه ـ أخف وطأة على كل حال ، من النوم بجسد انهكته عصا الخيزران ، التى اعتاد والده استخدامها فى عقابه وتوبيخه .

.. الشارع شبه خال من المارة والسيارات ، معظم البائعين اغلقوا حوانيتهم ! الليل مُسوّد لغياب النجوم ، حتما سيكون وجود بائع « الدخان » ، وعدم اغلاقه لدكانه ، من المستحيلات ..

ـ (رباه ماذا لو فعلها ؟ ! سيصب ابى جام غضبه ـ بمزاج عكر ـ على رأسى .. وسيبالغ فى ايلامى ..) قال ذلك وهو يقبض على « الريالين » بما ملكت يداه من قوة ، خشية ان تزداد مأساته بضياعهما .

.. الارتجاف والخوف يسيطران على حركاته وتصرفه .

نهق حمار فجأة ! ارتعدت اوصاله ، اصبح رأسه كتلة قدت من صخر ثَبتت على كتفيه الصغيرتين .. الطريق والأشياء فى عينيه يتبينها من خلال ستار شفاف من الدموع . ليته يستطيع العودة . الخوف يكاد يذيب قلبه ـ مسكين كيف لو ان امه ذكرت له علاقة نهيق الحمار بمرور الشيطان ؟ !

.. لقد كان حمار العمدة ! هذا يعنى انه يقترب من المقبرة .. ليته يستطيع العودة . سيمر ويتعامى النظر اليها ، جسده تدب فيه القشعريرة ، الخوف يجتاحه من قمة رأسه الى اخمص قدميه . خيل اليه ان الموتى تُبعث من قبورها ، متدثرة فى ثيابها البيضاء ، الاكفان تتقافز امامه قدمـــاه سكتت فيهما الحركة ، تسمرتا فى الأرض ، لاشك انه امام بوابة المقبرة تماما ، خطوات تناءى الى سمعه وقعها ، من المستحيل ان يلتفت ليرى مصدرها ، ومن الجنون ان يقف ! اخذ يدلج فى خطوه ، احس بسلبية خطواته ، بكى فى صمت وخوف ،

جاءته اضواء السوق المتلألئة فى اجزاء متفرقة منه ، كطوق النجاة ! عدد من البائعين مازالت متاجرهم مشرعة ابوابها ، الخطوات تقترب منه اكثر فاكثر ..

.. يا الهى !

(كيف تخرج وحدك فى هذا الوقت من الليل ؟)

سمع ذلك الصوت وكأنه يعرف صاحبه ، انتفض انتفاضة .. انفجر بعدها باكيا ، لقد كان صوت جارهم الطيب ، صديق ابيه ، اطمأنت نفسه بعض الشيء ، كانت المفاجأة بردا على قلبه ، مازال يجهش بالبكاء ، وجسده الصغير ينتفض ..

(اذا كنت تخشى العودة وحيدا ، فانتظرنى بعد قضاء حاجتك هنا ، لنعود معا)

.. وأومأ له الصغير برأسه مطيعا ، مسح دموعه بيده التى تقبض على الريالين المعروقين ! حقا انه لصبى حظيظ ، فوجود الجار الطيب فى هذا الظرف القاسى الذى يمر به ، يريحه ويبث فى نفسه الطمأنينه ، بائع السجائر مازال يستقبل زبائنه على صوت « الراديو » الذى يشنف بانغامه أذنيه .. ! السوق يوشك ان يقفل ابوابه ، الا بائع السجائر (الحمد لله) قالها الصغير بنفس مقطوع .. لابد ان البائع يعلم ان رزقه يصبح وفيرا فى هذا الوقت من الليل .. فهناك الكثير من « الخرمانين » الذين يدمنون التدخين كأبيه ..

.. عند عودته تذكر وحشة الطريق ، وتذكر المقبرة والموتى، فانقبض قلبه وامتعض .. ولكنه تذكر جارهم الطيب الذى وعده بانتظاره ليؤنس له طريق العودة ، انبسطت اساريره وبدا على وجهه الارتياح ، إن الرجل ينتظره فى نفس المكان الذى لقيه فيه عند دخوله السوق ، النور يسطع فى نصفه وجهه ، ارتعد الصغير فجأة ، وصلب فى مكانه ، ثم مالبث ان اطلق لساقيه العنان . فر هاربا فى جوف الظلام ، بكاؤه مسموع ، احس بقلبه يسقط متدحرجا بين ساقيه ، ارتمى عند عتبة البيت وجسده ينتفض ، يبكى بحرقة وخوف .. !

.. تحسس ثوبه ، فتش جيوبه ، والمكان الذى يفترشه ، لكن دون جدوى ، لقد أضاع « علبة السجائر » التى اشتراها لابيه ، انخرط باكيا ، يندب حظه العثر وليلته الكؤود .

.. اخذته امه الى صدرها ، مسحت جبينه الصغير بيدها فى حنان ، وهو لايزال يجهش بالبكاء ، الرعشة تسرى فى سائر جسده ، والخوف من العقاب يذيب قلبه . وقف ابوه يصرخ ثائرا والشر يعربد فى وجهه :

ـ اين الدخان ياشقى ؟ اضعت النقود كعادتك .. الويل لك يا أغبى من خرج من الرحم .

.. تمدد على فراشه .. وكأنه يفترش الجمر ، جسده المنهك المتشقق بلسعات الخيزران يهتز كأنه جسد شاة ذُبحت للتو . الخوف والألم يسيطران على نفسه وداخله ، عيناه غائرتان ذابلتان .. تطلع بهما الى سقف غرفته وقد استوحش جوها ، همومه تسلمه للتفكير ، فكره مسموم بحكايات خرافية ..

.. لقد هرب من الجار الطيب الذى وقف ليؤنس له وحشة طريقه ، لانه تذكر مقالة امه (إن الشياطين تأتى فى صورة أشخاص نعرفهم ونحبهم ..) ...

.. وأخذ يمسح قطرة دم قانية .. نزفت من أنفه الصغير ، كانت ممزوجة بقطرات دموعه .

* * * *





الدوامة

جلس « عارف عبد الغفور » على مكتبه الخشبى القديم فى الطابق الثانى لمبنى دائرة المالية ، وكعادته كان مبكرا فى الحضور ، فهو أول من يأتى الى الدائرة من الموظفين ، وأول من يلقى على العم « محروس » بواب المصلحة تحية الصباح وآخر من يودعه منهم عند انتهاء الدوام . جلس عارف غاطسا وسط أرتـال الأوراق والدوسيهـات المتناثـرة فوق مكتبه . بعضها مستندات وفواتير ، والبعض الآخر بيانات وبنود مالية تختص بالقسـم الذى يعمل فيه . كلها كانت كالشتات المبعثر على سطح منضدته هنا وهناك . وأوراق أخرى أهملت وغطى وجهها غبار كثيف .

خيم على الاستاذ عارف سكون وصمت مطبق . كان مغتما مخددا ، وقد سحبت نظارته الطبية السميكة العدسات على أرنبة أنفه الضخم . القلق والحيرة باديان على مسحة وجهه الأبيض ، انه كسر يرة قلبه .. وذات صدره .

كان تفكيره وهمه .. ليس بسبب الأوراق التى أمامه والتى قد يضيق بها صدر أى موظف آخر إلا صدر الاستاذ عارف فهو محب لعمله ومخلص له وإن كان هو فى حاجة الى متسع من الوقت لينجز كل ما تحت يديه من عمل يستوجب مراجعته وتدقيقه وإعـادة اجمالى الأرقام فى الايرادات والمصروفات . إلا أنه سعيد بعمله ولا يغادر مكتبه إلا وقد أنجز عدداً من المعاملات بالقدر الذى يشعر معه بالرضا والقناعة وراحة الضمير !! وكان لا يتوانى عن اصطحاب عدد منها الى بيته إذا كان « مستعجلاً » و« هاماً جداً » وأدركه وقت الانصراف قبل انجازه . إن تفكيره ليس بسبب عمله فهو لا يضيق ولا يغتم به .

هناك أمر ما يشغل فكره . إنه غارق فى دوامة من الحيرة والقلق والاضطراب النفسى ..

دخل فجأة « العم رجب » فراش القسم ، وألقى التحية على الاستاذ عارف ، فلم يردها له ولا بأحسن منها ، ولا برد لين ومعسول كما يفعل فى كل مرة . اقترب منه رجب وفى يده قطعة قماش وأخذ فى تنظيف منضدة الاستاذ عارف ..

ـ لابد أن أمراً ما يشغلك . فقد ألقيت التحية فلم تردها . ما الأمر ؟

قالها رجب وهو يحدق فى عينى عارف .. الذى تنبه فجأة لوجود رجب ، وكأنه استيقظ من غفوة نسى خلالها كل شىء حوله . فأجابه وهو يخرج قلمه من جيب سترته .. وقد خرجت من صدره زفرة حادة :

ـ أهلا يا رجب ! عذراً ، فأنا ما شعرت بدخولك الى المكتب .. عوضا عن سماعى لتحيتك . عذراً فأنا مشوش الفكر .

ـ لا عليك . كل ما فى الأمر انه يجب عليك ألا ترهق نفسك بالتفكير .

ـ هل الاستاذ حسنين الوكيل وصل ؟

ـ لا ليس بعد . موعد حضوره لم يحن بعد . انه يحضر فى التاسعة كما تعلم .

قال ذلك رجب وهو يعيد إحدى الدوسيهات الى وضعها السابق بعد أن قام بمسح المنضدة . ونهض عارف وفى يده ملف أخضر واتجه الى دولاب حديدى فى ركن الغرفة .. وأخذ يقول :

ـ لا تنس أن تعلمنى بحضوره ، إذا سمحت . أود مقابلته فى أمر هام .

وعاد الى مكتبه . و أخذ مكانه فى المقعد . وأطرق مليا ثم قال :

ـ أريد فنجانا من الشاى . رأسى يكاد ينفجر .

غادر رجب الغرفة .. وصدى صوته يتردد فيها « حالا يا استاذ عارف » ..

.. وعاد عارف الى التفكير مرة أخرى . الحوار الذى دار بينه وبين زوجته فى ليلة

البارحة .. تتداعى فقراته وكلماته فى خياله .. كلمة كلمة .. حرفا حرفا ، كأنه يحدث بينهما اللحظة ..

- يا عارف الأمر لا يحتاج الى كل هذا التفكير . أنت تتعب نفسك بنفسك . انى لا أرى فى الأمر مشكلة .

- أنت دائما هكذا ، لا تحسبين لأى شىء ، ولا تهتمين بكل شىء . إن لك قلبا كبيرا تحسدين عليه . أما أنا فلى طريقتى فى التفكير والاهتمام بحقائق الأشياء وجليات الأمور . كيف تريدينى أن أزوج « عواطف » قبل « عائشة » هل من المعقول أن أزوج الصغيرة قبل الكبيرة ؟ لا .. لا يمكن .

- أنا لا أرى فى ذلك شيئا . فالزواج قسمة ونصيب .

- وتريدينى أن أكسر خاطر عائشة بزواج عواطف قبلها ، إن هذا لا يحدث أبدا . ثم انى مازلت أفكر فى الموضوع .. ولا أريد أن أظلم عواطف . ولا أريد أن أقف فى وجه سعادتها .. وهذا ما يحيرنى ..! هذا ما يجعل تفكيرى فى الأمر صعبا يا رتيبة .

- الزواج يا أبا طه قسمة ونصيب .. ثم ان عائشة لم تعترض على أن تتزوج أختها قبلها .

- أعرف ذلك . ولكن .. لا أريد أن أزوج عواطف وانتهى الأمر ..

- قل إنها روحك المعلقة .. ولا تريد أن تزوجها مبكرا .

- لا تقولى ذلك فأنا لم أفاضل قط بين ابنائى . إننى ابذل لهم الحب والعاطفة والاهتمام على قدم المساواة ودون تفضيل وأنت تعرفين ذلك . إننى محتار فقط فى قبول من تقدم لخطبة عواطف وهى الصغرى ، بينما أختها عائشة وهى أكبر منها تنتظر قبلها الزوج المنتظر ..

ويدخل رجب وفى يده صينية بهت لونها .. واختفت ملامح الرسم المنقوش عليها ، وعليها فنجان من الشاى . وضعه على مكتب الاستاذ عارف وهو يقول :

- الشاى يا أستاذ عارف . وليمونة البنزهير التى تحبها .

ـ شكرا يا رجب لا عدمناك .

وأخرج ساعته المربوطة ـ بقيطان أسود ـ من جيبه ، ودقق فيها النظر وقال :

ـ أعتقد أن الاستاذ حسنين قد وصل ؟

ـ رأيته حين قدمت اليك يصعد السلم . هل تريد أن تبعث معى شيئا اليه ؟

قال ذلك رجب وهو يقف بباب مكتب الاستاذ عارف . ونهض عارف وأصلح سترته .. ووضع ملفا تحت إبطه .. وقال وهو يرتشف رشفة من فنجان الشاى الذى أمامه ، وقال وهو يهم بالخروج :

ـ سوف اقابله بنفسى . الأمر يستدعى ذلك .

« عارف عبد الغفور » من قدامى الموظفين فى دائرة المالية عمل بها أكثر من خمسة عشر عاما قبل أن تنقل خدماته من « هيئة الاسعاف » التى قضى فيها فترة مماثلة إن لم تزد قليلا ، وهو اليوم قاب قوسين أو أدنى من « الاحالة الى المعاش » ، وبالرغم من أنه ظل مجمدا فى مرتبته الوظيفية التى يشغلها منذ فترة طويلة ، ارتقى خلالها غيره من الموظفين وهو الذى يفوقهم فى عدد سنوات الخدمة والكفاءة والقدرة على العمل ، إلا أنه كان قانعا بوضعه الوظيفى ولا يتبرم من ظلمهم له . وقد حظى بمحبة الجميع لأنه بسيط وألوف ومؤنس . يحفظ من الشعر القديم الكثير من الأبيات التى جعلها حكمة له فى خلقه وسلوكه . ابتسامته لا تفارق مبسمه . وعباراته المشهورة « لو دامت لك ما اتصلت اليك » لا تسقط من لسانه .. يرددها دائما وابدا ...

جلست رتيبة أمام عارف .. تصب له الشاى ، وقد جلس هو على لحاف يلامس الأرض . اسند ظهره فى استرخاء على مسند فى كيس من « الدمقس الأحمر » ، واستغرق فى تفكير عميق .. تحسس رأسه الذي تناثرت على سطحه بعض الشعيرات البيضاء النابتة وسط فراغات واسعة ..

ـ ها ، ما هو جوابك على خطبة عواطف ! ألم تقرر بعد يا عارف ؟

قالت ذلك رتيبة وهى تذوّب السكر فى فنجانه . وصمت واجما . وكأنه ضاق بسؤالها . ثم انفجر قائلا :

ـ ولم العجلة فى الأمر ؟ اسمعى لا أريد أن تناقشينى فى هذا الأمر بعد الآن .. لا أريد أن أزوج عواطف لا أريد هل سمعتِ .

ـ طيب .. طيب ، لم أكن أعلم انك ضائق الى هذا الحد .

قالت ذلك وهى مرتبكة .. وقدمت له فنجان الشاى وأردفت قائلة :

ـ أنا لا يهمنى سوى راحتك . ولا أريد أن تشغل تفكيرك بهم أنت فى غنى عنه . صحتك أهم عندى من كل شيء .

ونكس رأسه فى اكتئاب ، وكأنه ندم على الأسلوب الذى خاطب به زوجته . ولاذ بالصمت . لقد طلب مهلة للتفكير حتى صباح الغد . وهل تكفى ليلة واحدة أو المقبل من الأيام ليقرر ويفكر . عقدته أنه ضعيف بعاطفته .. شقى بخضوعه لها ، ولأنه يحب أبناءه الحب العظيم ، ولأنه يريد أن يسعدهم جميعا .. حتى ولو كان على حساب سعادته ، فانه يحسب حساب كل خطوة يقدم عليها ، أو يقرر أمرا يتعلق بحياتهم ومستقبلهم . انه يريد ان يزوج عائشة قبل عواطف لأنها الكبيرة وهى احق بالزواج من اختها . إلا أنه غير مقتنع أيضا بالأسباب التى يتذرع بها ليقف فى وجه سعادة ابنته الصغرى . انه يريد السعادة للاثنتين . فهل يتحقق له ذلك قبل أن تغمض عيناه الى الأبد !!؟..

.. وكما غربت عنه شمس الأمس .. أشرقت عليه شمس يومه المقبل . شارد الفكر .. زائغ البصر .. فارغ الفؤاد ... وفوق هذا انه لم يتخذ أى قرار . رأته رتيبة على حاله تلك فلم تجرؤ حتى على سؤاله عن ليلته . وبث مخاوفها له من أن يعتل أو يؤثر فيه الأمر . خصوصا وأنها قد عجزت عن مراودته الليلة البارحة .

.. ترك عارف بيته .. ومشى بخطوات متثاقلة وكأنه يجر جسما ثقيلا خلفه .. لم تشرق عليه شمس فى يوم قط أسوأ من اليوم الذى يمر به . حمل على كاهله هم الدنيا .. وقد فارق الابتسام محياه الطلق .

.. وبينما هو يمشى الهوينى فى الزقاق الضيق بالشامية .. مر بمقهى (العم حامد) ، وألقى التحية العابرة على من كان يجلس فى مقاعدها . ونهض فجأة من بينهم « مصطفى درويش » جاره ، واقترب منه وحياه :

ـ لقد انتظرت قدومك بعد صلاة المغرب يوم أمس فى الحرم فلم تأت عسى الأمر خير ؟

ـ لاشىء . لم أشعر بتحسن طوال يوم أمس فآثرت المكوث فى البيت . لقد أصابنا الكبر يا مصطفى .

ـ لا بأس عليك يا أبا طه . وأنت أكثر شبابا منى . لقد قلقت عليك فعلا حين افتقدت حضورك فى حصوة الحرم .

ـ عشت أيها الجار الطيب . ما الأمر ؟ هل أردتنى فى أمر ما ؟

قال ذلك عارف بعد أن رفع رأسه وكان مطأطأ .

ـ خير إن شاء الله . ولاشىء إلا الخير . نستطيع الحديث ونحن فى طريقنا حتى لا أعطلك عن عملك .

ـ لا بأس . ماذا تريد أن تقول ؟

ـ لقد قررنا أن نزوج ابننا درويشا .

ـ خير ما قررتم . وعلى بركة الله ـ قال ذلك وهو يغرس فى الطريق نظراته وقد وضع يديه خلف ظهره ـ

ـ وقلت لن أجد لابنى درويش زوجة تليق به حسبا ونسبا وأصلا ، سوى ابنتك .

وتوقف عارف عن السير وشعر أن الأرض تميد تحت قدميه ، وعلق نظره فى وجه

صديقه مصطفى والدهشة تعقد ما بين حاجبيه ، واصطرعت الأفكار فى داخله ، هل من الممكن أن يتقدم انسان آخر لخطبة عواطف .!؟ .. هل .. :

ـ بنتى أنا ؟ من فيهن ؟ ـ قالها عارف وقلبه يعتصر خوفا وقلقا ـ

ـ عائشة يا عارف . عائشة انها وايم الله الزوجة التى تليق بابننا درويش .

قال ذلك مصطفى وهو يشد على يد عارف يستجديه .

ـ عائشة !؟

وفغر عارف فاه وهو لا يصدق . بدا عليه الارتباك . فرت من عينيه دمعة لؤلؤية .. ورفع رأسه الى السماء ، وقد تنفس الصعداء . وقف مصطفى ينظر اليه متعجبا فى بادىء الأمر ، وظن أن جاره يمانع فى تلك الخطبة . سرعان ما تبدل ظنه . فقد ارتسمت على وجه صاحبه علامات البشر والاغتباط الشديد . لم يستطع عارف اخفاء فرحه بطلب مصطفى .. فشد على يد جاره وتعانقت ايديهما . ومضيا يكملان السير . وابتلعهما الزقاق الضيق .

* * * *







الخوف من النهاية

تحركت عربة الاسعاف تشق طريقها بصعوبة ، وسط زحام الناس والسيارات . حركة المرور مشلولة فى الشارع الرئيسى ، ورجال الشرطة ينتشرون فى كل مكان . فى داخل الاسعاف جسم مسجى بغطاء قذر قاتم . اللحظات تتأثر بعتمة الموت وكربته . جلس فى الناحية المقابلة للجثمان شاب تخطى ربيعه الثانى بسنوات ، وجهه مدسوس بين راحتيه وهو ينتحب ، الجندى الجالس بالقرب منه ابتلع ريقه والحزن باد فى عينيه ، أزاح قبعته الرسمية عن رأسه ... مسح رأسه الحليق بمنديل مجعد التمس العزاء للشاب ولاذ بالصمت . الموت والحياة فى صندوق حديدى .. يشق طريقه بصعوبة وسط الزحـام . صوت « الونـان » يجلجل المكان ...

.. كانت ليلة البارحة ، ليلة قاسية بالنسبة له ، رغم أنها ربيعية ! عاوده التفكير، انه أحد أسباب قلقه المزمن . بات ليلته غارقا فى متاهات وخيالات لا حدود لها . ما حمله على التفكير خواطر وهواجس تراود ذهنه الطافح بالاحلام الشابة والعواطف الملتهبة ، وإن كانت بعض اللحظات اليائسة تختلسه وتغتال تلك الاحلام على مشهد من أحاسيسـه وعواطفه . لكنه يأبى أن يستسلم بسهولة ، حين يصمت .. فى أزمته .. صمته فكر ، حتى فى حالات الاكتئاب الشديدة التى تنتابه من وقت لآخر .

.. ألا ما أشد قسوة الرحيل ! كيف يرحل الانسان فى لحظة يجهل فيها حتى اللحظة التى تبدأ فيها رحلته الى الوجهة التى يرتحل اليها . مرض أمه المزمن الذى اقعدهـا الفراش لعدة شهور يغمسه فى التفكير فى فناء الكائنات الحية والمخلوقات .. فكرة الفناء

تومض فى ذهنه وتغيب ! يتذكر أمه الطريحة الفراش وقد أصبحت هيكلا عظميا ميتا الا من الروح . فيتصور انها تعتزم الرحيل بين لحظة وأخرى ، ومن الممكن بلا وداع . يصعب عليه فراقها ، لكنه يطلب لها الرحمة ، لأن الحياة لا ترحمها من آلام المرض .

... ألا ما أشد قسوة الموت ! سواء جاء آجلا أم عاجلا !! ولكنه آت شئنا أم أبينا ، لابد أنه آت .

الحياة تشرق بالحب ، وتعتم بالحزن ، وتفنى بالتفكير فيما هو قادم ، وفيما هو فى علم الغيب . وكم نحن سذج وأغبياء ووجوديون حين نظن أن الحياة باقية ، وان زوالها بعيد وليس قريبا ! لو دامت لك ما اتصلت اليك .

نظر حوله ! لم يجد إلا أشياء مبعثرة كداخله ، لابد أن ينظم حياته أكثر ، زوجته لا تساعده على ذلك . المكان يضيق به صدره على رحابته . الأفكار والهواجس تجهز عليه بكل ثقلها كما لو كانت كابوسا يقض مضجعه .

.. حوار ابتر يحتدم فى رأسه . لا يدرى متى كان البدء فيه . رحيل والده قبل وقت غير بعيد ، ترك فى نفسه وقلبه فراغا كبيرا وحزنا أليما . نهاية المخلوقات والأشياء أو فناؤها يثير فى نفسه كوامن الانغماس فى ظلمات التفكير السلبى البليد . ديمومة الحوار الابتر متصلة ومترسبة فى أعماق داخله . لا يتصور ان فى استطاعته التخلص من أزمته . إذ كيف ينتشل الانسان نفسه من بين براثن تفكيره وهو جزء منه ..؟..

.. ولكن لابد من أن يتجاوز هذه الأزمة .. وإلا فإن النتائج ستكون خطيرة !! ولكن كيف ؟ كيف يتجاوزها وكل شيء يعيده للتفكير فيما هو هارب منه . أجهزة الإعلام كلها تنقل اليه آخر أنباء الذين يسقطون ضحايا المرض اللعين ! جهابذة الطب وعلماء الامصال عجزوا تماما عن مكافحته ودفع بلائه عن البشرية . بل عاجزون عن الحد من زحفه وفتكه بالانسان .

حتى الآلات الحديثة التى ظن الانسان أنه اخترعها لتكون نفعا له .. أصبحت وبالا عليه ، فكم هى اليوم تجهز عليه بشراسة وتفتك به فتكا شنيعا . حوادث السيارات والطائرات والقطارات كثيرة والضحايا الذين يسقطون فيها يعدون بالملايين ..

.. خياله يسلمه لليأس ، تفاؤله بات أسود ! . كل شيء يشجع على ذلك ! الحياة تبدو شنيعة وقبيحة على نحو مزعج . أوهامه وخيالاته تساهم فى حتفه الى واقع مرير . حيويته دبّ فيها الفتور وعزيمته ثبطت . إنه عاجز عن عدم الاستسلام . إن قدرته على التنصل من مساوىء تفكيره تخور .

يذكر أن أمه لاقت عنتا شديدا فى حثه على توطيد علاقته بالله . « الصلاة نور لقلب المؤمن يا بنى » ، عمل بنصيحة أمه ودوام على الصلاة بعد ان كان هاجرا لها ، وأصبح يرى الله فى كل شيء .. فعله وعمله وقوله . الخوف من النهاية .. والتحسب لها ، زاد احساسه بها بعد أن عرف الله وتقرب اليه .

.. فى تلك اللحظة ...

دخلت عليه زوجته .. وقطعت عليه حبل تفكيره ، اطلت بوجهها الشاحب .. وتقدمت اليه بخطوات ثقيلة ، رفع رأسه وهو يجلس على حافة سريره وقد اعتمد على يديه . كما لو كان سجينا فى زنزانة وقع الاقدام فيها صداه فى الاذن والقلب كأنه يرتقب قرارا يحدد مصيره . سأل زوجته بقهر مفضوح :

- كيف أمى يا نوال ؟ ألم تتحسن ؟

جلست بالقرب منه ، وأسندت رأسها الهش الى كتفه المنهار . وقالت فى صوت واهن :

- لازالت الحمى تسرى فى سائر جسدها .

ابتلع قهره ، وتألمه .. وصرخ محتدا :

- هل الطب عاجز عن إيجاد ما يسكن آلامها .. إنها ...

الخوف من النهاية

ـ الحمى أمرها عادى . لكن خالتى شاخت وضعفت . لا طاقة لها بتحمل مثل هذه الآلام التى نقدر نحن الأقوياء عليها .

ـ هل تقصدين انها النهاية ؟

ـ لا لم أقل ذلك . الأعمار بيد الله . كن مؤمنا ولا تقنط من رحمته .

وصمت . وفى حلقه غصة تضيق بها انفاسه ، صمته فكر . ردد فى داخله :

(ترى أهى النهاية حقا) ..

صمت برهة . واتجه بنظره نحو وجه زوجته الدقيق القسمات ، أسند رأسه المتهالك على رأسها وكأنه يطلب نجدته . فاحتضنت رأسه وكأنه طفل تضمه الى صدرها . جاءه صوتها وكأنه قادم من أعماق جب :

ـ الانسان لا يموت إلا فى ساعة أجله يا حسين .

رفع رأسه .. واغرورقت عيناه بالدموع . انتزع من بين شفتيه ابتسامة فاترة ! وهز رأسه بالرضا .

.. وابتسمت ! فقد أومضت بارقة أمل فى عينيه . كأنه تقمص روحا جديدة .

* * * *

ـ كيف أصبحت الوالدة ؟

ـ أحسن بكثير من ليلة البارحة . إنه أول تحسّن لها منذ أن مرضت .

ـ الحمد لله .. الحمد لله . ألم يحضر اخى محمود ؟
ـ ليس بعد . عادته يأتى لزيارة خالتى فى العاشرة .
وضع غطاء رأسه على عجل . قال فى صوت خافت وهو يعالج العقال فوق رأسه :
ـ سألقى نظرة عجلى على أمى قبل أن انصرف .
ـ هل ستغادر مكتبك .. الى أى مكان ؟
ـ لن أبرحه إلا الى هنا .
أرسل لها قبلة فى الهواء .. واغلق خلفه الباب برفق .

* * * *

جلس على مكتبه فى الشركة وقد تناثرت على صفحته الأوراق بشكل فوضوى . أخذ يلملم شتاتها على غير عادة منه . وطلب من مستخدمه أن ينظف بقع الحبر التى لطخت اجزاء من الحائط خلفه . وأمره بالقاء ما انتفخت به بطن سلته من قصاصات ونفايات ..

(لاعطين نفسى ما حرمت . الحياة تشرق بالحب ، وتعتم بالحزن ، وتفنى بالتفكير الدائم فيما هو قادم ، وفيما هو مجهول) ..

إنه اليوم أكثر لهفة للتمتع بلذة الحياة من أى يوم آخر . لماذا ؟ لا يدرى ! سيطرد عن ذهنه فكرة الفناء والنهاية والاستسلام لليأس والخوف . أمه تحسنت والحمد لله . وقلبه متفتح ومتفائل . بل كل شىء فى خاطره يوحى بالتفاؤل ...

الخوف من النهاية

رن جرس الهاتف فى مكتبه فجأة ! قبل أن يرتشف من فنجان قهوته شيئا ، بقايا ابتسامة حائرة تلاشت على شفتيه عند سماع صوت الهاتف .. شيء ما يقبض قلبه ... أفكاره وهواجسه تغتال فرحه من جديد تلقى بكل ثقلها على رأسه وقلبه .

جاء صوت زوجته عبر الهاتف .. كأنه انذارات الحريق :

ـ احضر فورا . أمك تعانى سكرات الموت . نطقت باسمك مرتين .

أحس كأن خطرا ماحقا يترصد حياته . شرد بعيدا ، اهتز همس صارخ فى داخله !

(ما أقسى قلبك . أمك تحتضر وأنت ساكن فى مكانك . تريد رؤيتك قبل أن ترحل) ..

ترحل ! لا .. لا ..

وقفز كالمجنون من مكانه ، لا يعرف كيف تخطى درجات السلم مثنى وثلاث ورباع ! يريد أن يصل بسرعة لا وقت لديه لينتظر فيه المصعد . السيارات فى الشارع الرئيسى كالسيل الجارف .. هديرها وأصواتها يغلب على كل شيء . تنهب الأرض فى غدوها ورواحها . الحياة فى داخلها .. والموت فى دواليبها ... اتجه بنفس السرعة الى الشارع كالمجنون . لا يعى شيئا . أحس بدوار شديد .. كأنها الساعة . كابوسا يجثم على صدره .. صوت ارتطام وتهشيم .. صوت مكابح السيارات .. وانتهى كل شيء ..

.. الدماء تسيل فى الشارع .. جثة دثرت بغطاء لونه ولون الدم سواء . تحركت سيارة الاسعاف .. تشق طريقها بصعوبة وسط زحام الناس والسيارات . ورجال الشرطة ينتشرون فى كل مكان . فى داخل الاسعاف جسم مسجى بغطاء قذر . عتمة الموت تسود . جلس فى الناحية المقابلة للجثمان ، شاب دس وجهه بين راحتيه وراح ينتحب .

* * * *



نداء القرية

أحس بلسع الشمس فى وجهه وهو يخرج إلى النور لأول مرة .. كأنه جنين يخرج من رحم أمه ظلل عينيه بأحد كفيه .. نور الشمس يبهره .. وهجها يبهر بصره .. أخذ يستنشق الهواء الطلق ملء رئتيه الخلو يملأ جوفه،صوت السيارات المارقة فى الشارع يكسر هدأته، نسى مكرها ضوضاء المدينة ومايميزها من صخب خمس سنوات عاشها فى عالم مغلق .. عالم يصطدم فيه بصره بأربعة جدران .. الجهات القطبية فيها سواء .

تطلع بخوف إلى الجندى الواقف على بوابة « السجن العمومى » فأوجس فى نفسه خيفة كأنه لايصدق أنه يتنفس هواء الحرية الطلق خشى أن تمتد إليه يد الجندى المفتول الشارب لتعيده إلى المكان الذى يمتعض حتى لمجرد ذكر اسمه . لقد عاش فيه محبوس الأنفاس .. ضائق الصدر .. مغموم الفؤاد ، حين وقعت عيناه فى عيني الجندى ابتسم له ابتسامة باهتة مصطنعة .. ابتلع ريقه بصعوبة،تقدم الجندى نحوه ومد له يده مصافحا،ازداد خوفه بأمر خمن وقوعه .

ـ (أرجو الا يكون هناك خطأ ما فى اطلاق سراحى ؟!) .. همس فى نفسه وهو يمد يده المرتعشة .

ـ (هنيئاً لك بالحرية ، نتمنى ألا نراك هنا ثانية،عش حياتك موفور الشرف والكرامة) .

فرج شفتيه المرتعشتين ، ثم زمهما .. هز رأسه مطيعاً .. كطفل اصاخ السمع لنصح أبيه . قلبه يقفز من بين ضلوعه ثملاً بالفرح ..

- (ليتنى أعود طفلا كما بدأت .. لأعيش صفحة جديدة نقية ..) .

جاس ببصره فى الفضاء .. وكأن عينيه ألفتا وهج الشمس .. لعن الظروف التى ساقته لذلك المصير واستغفر ربه على تلك اللعنة وأغمض عينيه فى هدوء .. (يالها من أيام) ..

- (أنت طرى العود ياهذا عودك أخضر .. « تسدح » الرياح قامتك . انك تملك قلبا أشبه بقلوب العصافير ، غيرك ممن اعتاد حياة السجن يرأف لحالك لقد كنت بيننا كالتلميذ الذى عاقبه معلمه فأدخله إلى غرفة « الفئران » .. السجن للرجال ياهذا كم أسفت لك حين رأيتك تبكى ! كنت تماماً مثل أمى ، بل مثل كل الإناث .. ألم أقل لك : انك طرى ..)

كثيراً ما غلا الدم فى عروقه .. وارتفعت يده لتصفع وجه رفيق السوء الذى تخصص فى الإجرام - لقد ظلم وأهين بالسجن معه ، وبعض الشرذمة الفاسدة فى زنزانة واحدة - وأراد أن يصرخ فى وجهه مهتاجاً (أسكت يا ابن الـ ...) .. لكنه آثر الصمت .. وكظم غيظه خشية أن يصبح سجله فى السجن أسود كما صار خارجه لقد دأب منذ دخوله السجن على أن يكون حسن السيرة والسلوك .. خصوصاً وانه لم يحترف ماقام به من جنوح .. وأخلى سبيله قبل المدة التى صدرت فى حقه نظراً لسلوكه الطيب ونشاطه الملموس .

ليس كل إنسان زج به فى السجن .. وسيق إلى غياهب قيعانه .. بمجرم عات .. أو سفاح متمرس ، فالاقدار لها أحكام لقد أذنب وأقر بذنبه ونبذه مجتمعه لأنه أخل بأمنه واستقراره ، وقضيته قضية مشهورة لاكتها الألسن وتناقلتها الآذان والأفواه .. لكنه طيب إلى درجة السذاجة يحمل فى صدره قلب طفل برىء ! فكان من السهل التغرير به الحرية .. الحرية ..

حلم ظل يراود ذهنه المتعطش للفرح سنين وأياماً ، نفسه مذلولة إلى درجة الاحتقار فقد عاش حياة اغتيلت فيها كرامته .. وأهين شعوره اشتم رائحة حقارته كما كان يشتم رائحة الرطوبة .. والعرق الذى يتفصد من أجساد السجناء أغلق عينيه على الظلام ، النور كان يأتيه معتقلا من خلف قضبان حديدية من فتحة صغيرة فى أعلى الغرفة القاتمة ، ما أجمل الشمس حتى الانبهار ظلال القضبان المتشابكة عششت فى قلبه كما تعشش العناكب خيوطها،ما أشد قسوة الحياة التى عاشها ، أنماط البشر التى عاشرها .. أسلمته لوحدة قاسية ، الذين اغتيلت حرياتهم خلف القضبان يعيشون حياة لا طعم لها ولا مذاق،يقتلون الفراغ بلعبة « البلوت »،فيقتلهم ، ويمارسون الأكل والنوم ممارسة ادمان وتشف فتنفخت عيونهم وتضخمت كروشهم .. وتثبطت عزائمهم لذلك رفض تلك الحياة .. سلك مسلكاً مغايراً،وكسر الديدان الذى الفوا تعاريجه،فكما عاش الحرية وعرف كيف يعيشها وهو طليق عاش حياة القيد بهمة وعزيمة وكأنه طليق لم يكن خروجه من السجن قبل انتهاء مدة عقوبته أمراً مستغرباً من قبل رفاقه السجناء،فقد عرفوا عنه انطواءه واختلافه عنهم وها هو اليوم ينطلق حراً .. يلثم الهواء صفحة وجهه الأسمر .. وتعانق قلبه فرحة عارمة .. حبست عنه الحرية سنوات مريرة .. يعود للقائها وقد تهذبت أخلاقه واكتسب صنعة تعلمها فى سجنه .

•• فرحته كبيرة بحريته ، انها حتماً ستكون أكبر بوجود أمه . خرج إلى الحياة ليجد التغير قد طرأ على كل شيء ، رحل أناس وجاء آخرون بقى على وجه الأرض من لايعرفه .. وجاء إليها من لايهمه مجيئه أصبح مقطوعاً من شجرة بعد أن رحلت أمه من دنياه . ماتت وهو لم يمض على سجنه سوى سنة واحدة ، لم تطق الحياة بعيدة عنه عافت من أجله كل حياة مترفة . أبت أن تنام على فراش .. وافترشت الأرض حزناً على حالته ، حبست عن نفسها الهواء خلف جدران بيتها حتى لاتنعم بالحرية التى حرم منها ولدها ،

وسقمت حتى براها السقام ، وانتهى بها الأمر إلى الموت وهى مقهورة سقيمة .

ـ (يا ولدى قريتنا أحسن لقد مات أبوك وهو مطمئن إلى انك تعشق الأرض التى أفنى فيها حياته .. وتحب الوادى الذى هو مهد أبائك وأجدادك ، وأغمض عينيه إلى الأبد وقد ورثك هذا الحب كما ورثك أرضه ، لن نجد يا ولدى أطيب من أرضنا ، المدينة عالم غريب عنا ، اعلم أنك تصبو إليها بآمالك وأحلامك ، لكنك ستضيع فيها .. ستضيع يا ولدى ..) .

كأنها كانت تعلم أنه سيلاقى هذا المصير وأنه سيفتقد فيها طيبته وكرامته ، الحياة فى المدينة لاتلائم طبائعه .. بيئته البسيطة التى عاش فيها تلفظ بيئة المدينة وتنكرها ، حياة المدينة معقدة .. (الحابل فيها يختلط بالنابل) الطيب يعاشر السيء .. والسيء لا يأتى إلا سيئاً ، لقد أغرته حياتها بالانحراف .. كانت أرضه حصبة أثمر فيها جهد الغاويـن استغلوا بساطته وسذاجته وجرفوه معهم فى تيار الكسب غير الشريف فخسر كل شيء ماله وكرامته وطيبته .. (لعنة الله على السفلة المخادعين) .. شعر أن الدنيا تلفظه ، أحس بالقهر والجوع معاً ، تحسس فى جيبه شيئاً ما أخرج مفتاحاً وحيداً .. لايدرى ماذا حل بسيارته « الونيت » آلات الحضارة وتحسين المدينة ابتلعتها ، كل شيء قد تغير ، لم يكن الشارع الذى يمر ببوابة السجن معبداً ومنسقاً كما وجده حين خروجه إلى النور ، لقد كان أرضاً وعرة المسالك ، سبحان من أنبت فيها هذا العمران فى هذا الوقت القصير ، يد الإنسان إذا سخرت للخير يكون الخير للجميع ، وإذا سخرت للهدم فالهدم يشمل الجميع وشتان بين هذا وذاك ، شتان مابين الذى يزرع الورد والذى يزرع الشوك .. (المدينة الداخل فيها مفقود .. والخارج منها مولود) ..

قال ذلك وهو يمر بالشارع الرئيسى فى المدينة .. ازدحمت الأرصفة بالمارين واختلطوا شيباً وشباباً .. ذكوراً وإناثاً ، ما أسوأ المدينة بهذا الزحام ، أضواء اللافتات التى علت

المتاجر والحوانيت .. اعلانات « النيون » .. تنعكس بألوانها فى وجوه الناس .. بينما تلونت السماء بحمرة الشفق وهى تعانق قرن الليل تقاذفه الناس فى تزاحمهم ككرة شحم مهترئة يسرعون الخطا كأنهم يساقون بعصى ، شرد بفكره وتذكر قريته .. تذكر واديه .. تذكر وجه أمه ! لثم وجهه باحرامه الأحمر .. وهو تائه الخطو .. فارغ الفؤاد .

•• بات ليلته وقد جافاه النوم ، قضى الليل وهو يشهد صراع نقيضين فى داخله ، طرفا نزاع تعالت أصواتها للفوز به لكنه عقد العزم على الرحيل ، انتصر فى نفسه للرجل الطيب على الآخر ، وقرر « العودة » ..

•• ومع شروق الشمس كان ينتظر على ظهر أحدى الحافلات فى موقف سيارات الطائف وهى تتأهب للرحيل يرقب اللحظة التى يبتعد فيها عن المدينة التى أخذت تتثاءب « متكاسلة » .. والشمس ترسل أشعتها من خلف البيوت ..

•• (ياولدى قريتنا أحسن .. !) .. جاءه صوت أمه يزغرد فرحاً .. والشاحنة تشق عباب الطريق عائدة به صوب القرية .. !

* * * *







العاصفة والمهر الأبيض

أغمض عينيه فى قلق .. قلبه يضطرب فى صدره كأنه طفل وليد يصرخ ويرفس بعنف . لاذ بالصمت المطبق وكأنه يصغى لحديث أفكاره .. وكوامن داخله وأعماقه ! بدا غير مرتاح لذلك الحديث بل يكرهه . ارتسمت فى عينيه الزائغتين الحائرتين .. لمحات من القلق والاضطراب ، كل شيء حوله يتأمله ويحدق فيه وكأنه شيء جديد بالنسبة له . يتفحص بنظراته حتى التوافه بلا إمعان ولا تركيز .. ماذا يقصد من إطالة النظر فى ذلك الثقب الصغير الذى ينفذ منه بصيص من نور الشمس !! هو نفسه لايدرى !؟ الأشياء الصغيرة تتضخم فى عينيه . جال ببصره الشارد فى أرجاء غرفته النظيفة المتواضعة وهو يشتم فيها رائحة الرطوبة التى تشعره ببرودة تسرى فى سائر جسده .. زم شفتيه فى قرف وازدراء، عقله الباطن مازال يرغى ويزبد .. هواجس مخيفة تخيم على رأسه ، لم تكن سوى أفكار سوداء معتمة ، لايدرى متى تنقشع عن ساحة تفكيره ، لتعود الابتسامة على وجهه المشرق اللّماح .. الطلق المحيا ..

.. آه ما أقسى العبارات التى ينطق بها لسان (العم سليمان) بائع (الكباب الميرو) انه يظن نفسه فى حكمة لقمان ويملك صبر أيوب ، دائماً وأبداً يذكره بالتغيير الذى طرأ على حياته ونفسه .. يذكره بأنه ليس (عليا) صاحب الأمس ، ربما لأنه لم يسر لما آلت إليه حاله من عبوس واكتئاب ، ولايدرى لماذا هو يشعر بشيء من النفور منه ، ولايشعر بالارتياح لأى كلمة يقولها له ؟ إذ يتفلسف كثيراً وينتقد كل شيء حتى ذلك الاستقرار الذى كان ظاهراً فى عينيه . لم يجد بدا من أن يطلق زفرة موحشة . زادت من اكتئابه .

العاصفة والممر الأبيض

إنه غير مقتنع بواقعه .. وهذا واضح تماماً لأن اليأس بدأ يدب فى كل قطعة إحساس فيه كما يدب النمل فى أطراف الجسد .. أمسك بالقلم يداعبه ويتأمله وكأنه نسى فيم يستعمل ؟ أو هكذا يخيل للمرء الذى يشاهده . أراد أن يسطر لها رسالة يسكب فيها وعلى صفحاتها البيضاء سواد مايجيش فى صدره .. ولكن .. لا !

.. إن تصرفاته تحكم عقله وتفكيره .. بل هو واقع تحت تأثير حالة نفسية معينة ومن الخطأ أن يقدم على شىء كهذا ، وإلا فقد آخر شىء فى حياته يحقق له سعادة الدنيا وهو ليس مجنوناً حتى يقامر بالورقة الأخيرة التى تحقق له الفوز بالسعادة•كل الكلمات تزدحم فى جمجمة رأسه .. شعر وكأن صداعاً نصفياً يشطر رأسه شطرين . أراد أن يفتح (الطاقة) ليشتم رائحة هواء نقى ربما يعيد لنفسه الحيوية والنشاط . ولكنه تراجع آسفاً لأن الهواء سيأتيه قذراً موبوءاً خصوصاً وأنهم يسكنون فى الطابق الأرضى !! ولاشك أنه سيصاب بخيبة أمل لما سيراه . إن بيتهم يقع فى زقاق ضيق جداً ينتهى إلى سوق شعبية يكثر فيها الضجيج ، لقد سئم من الحى الذى يعيش فيه وأصبح يضيق بكل الوجوه التى يشاهدها فى حارته .. الحارة القديمة فى جدة ابتداء من (العم سليمان الكبابجى) ومروراً (بالعم أحمد اللّياتى) وإنتهاء (بالولد محسن بائع الكاكولا) ، وهو الذى ألف معاشرتها منذ الصغر ويذكر مع ربائبه الذين شبوا مثله كل قطعة فى تلك الحارة ، ولكن تلك الوجوه أصبحت تذكره بواقعه الذى يعيشه وبالحياة التى يحياها .. وكأنه قد وصل فى النهاية إلى طريق مسدود . لايريد التراجع !! والأفول .. لايريد القفز على الحواجز ، ووقف صامتاً . وأراد أن يقِف الزمن مثله ، دون أن يمضى ، ولكن هيهات ..

.. ويرتمى على أقرب مقعد خشبى بكل ثقله وكادالمقعد أن يتهالك ويقع مثله على الأرض . حمل رأسه وكأنه يستثقله على كلتى راحتيه وكأنه الثور الذى يحمل على قرنيه عبء الدنيا كلها !! انغمس فى تفكير عميق ، واستسلم للهواجس من جديد . طفحت فى

رأسه أسئلة كثيرة ، ودّ بالحاح الإجابة عليها ، ولا يدرى كيف وماذا يجيب ؟ أو هو يعرف الاجابة ويتهرب من مواجهة الحقيقة . يريد الفرار من الواقع الذى يرفضه . إنه يعلم جيدا أن إجابته على كل سؤال يلوح له لايخرجه من أزمته .. ولا يستطيع اجتياز المحنة التى تسوّره . حاول ولكن .. كانت محاولاته تنتهى إلى القلق والحيرة والاندحار . انه كابوس يجثم على قفص صدره الضعيف بلا هوادة وهوان .

- يا ابنى ألا تعتقد أنك تظلم نفسك بهذا الحال الذى أنت فيه ، ألست مؤمناً بأن المال ليس كل شىء أم أنك تعتقد أن هؤلاء الأغنياء جميعهم سعداء ؟ ربما يابنى يكونون أكثر منا هموماً وعذاباً ؟ فالسعادة ياحبيبى فى النفوس وليست فى (الفلوس) ، لقد عرفتك قنوعاً .. عرفتك إنساناً يؤمن بأن الله يعطى الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء - فلاتكن جاحداً يابنى .. !؟

هذا ماقالته أمه وهى تجيبه ذات ليلة حينما ثار وأزبد فى حديثه الذى حطم به كل شىء وأفرغ فيه كل شىء كان يود الإفصاح عن كل شىء ، وضيقه عن كل شىء . وأجابها فى هدوء مفاجىء وكأنه يريد بذلك السخرية من نفسه وحاله :

- لقد أضعنا السعادة منذ زمن ! وافتقدنا لذة العيش الهانىء منذ سنوات طويلة . أما من جهة المال .. بأكداسه المتضخمة . فاننا لانعرفه أبداً . نحن يا أمى لانملك من ذلك كله سوى الاحلام فقط . لم تجبه بل صمتت وقد تحجرت الدمعة فى عينيها وانفطر قلبها عليه .. فقد أحست بمرضه . أن المرض يسرى إلى فكره وخياله واحساسه (مسكين ياولدى) .. قالتها فى نفسها واكتفت بنظرة أسى ولوت وجهها بحزن . حتى الأحلام والآمال لايملك منها سوى لحظات وثوان .. لاتلبث أن تعيده وتطرحه على أرض الواقع . حتى الحب فى زمننا هذا لايكفى . هراء .. وألف هراء .. أن نصدق مايقولون بأن (الحب قبل الخبز أحياناً) .. إنها عبارات يتلذذ بترديدها الأغنياء وهم يشاهدونها فى أفلام السينما

العاصفة والمهر الأبيض

والتلفزيون ويستمتعون بالتسلية فى ترديدها والفلسفة بها . أما البسطاء أمثالنا فهم يسمعون تلك العبارات ويقرأونها . ولكن من الصعب عليهم أن يصدقوها . الحب يبقى مابقى الخبز بل هو الذى يجمع بين المحبين تحت سقف واحد !! كيف لهم تحقيق ذلك وهم لايملكون ثمن كسرة خبز ناشفة . كثيرا مايقول الانسان دون أن يعى حقيقة مايقول .. كانت أمه الخالة (أمينة) أول من عرف بما آلت إليه حال ابنها (على) لقد عرفته قلقا نفسيا وعاطفيا إلى أبعد الحدود . ولكنها لم تعرفه يائسا ولا جاحدا ولا ثائراً على واقعه وماقسم له . لذلك فقد أحست .. وكانت أول من أحس بفقدان ابتسامته العريضة التى كانت ترسمها شفتاه الغليظتان . امه التى عاشت من أجله منكبة على (آلة الخياطة) تخيط الثياب للنساء سنوات طويلة . لم يوقفها عن ذلك الكفاح المرير سوى الرعشة التى أصابت يديها وواصلت الجهاد لكى تربيه تربية لايحتاج فيها إلى أحد . بعد أن فارق والده الحياة وهو لم يزل طفلاً . قاست المسكينة مع أبيه شظف العيش وقسوة الحياة . فقد كان والده يعمل (نحّاسا) واضطرت بعد وفاته أن تبيع الدكان لتعيش هى وابنها .. ولما كبر على وأصبح شابا رأت فيه السند بعد أبيه . وكانت تريده أن يكمل تعليمه حتى نهايته . الا ان مرض والدته الذى أصاب يديها اضطره لترك المدرسة . والتحق بالعمل الوظيفى مبكراً وهو لايملك من المؤهلات سوى (شهادة الكفاءة المتوسطة) وأصبح يتقاضى راتباً شهرياً يكفيه وأمه لقهر الفقر والابتعاد عن سؤال الناس . راتب المرتبة الثالثة .

.. لقد كان (على) يبحث دائماً عن المجد والرقى .. فهو إلى جانب كونه موظفا كفؤاً إنسان ذو مواهب ولكن مواهبه باتت حبيسة أنامله حيث انه لم يمارسها .. ويأمل فى أن يأتى اليوم الذى تظهر فيه براعة تلك الأنامل ..

ـ (صعب على المرء أن يعيش ليجتر مرارة الحياة وآلام السنين والأيام القادمة .. ويتأسف على الأماسى الحزينة الراحلة . لأن الاستغراق فى متاهات الألم والقلق يحطم حتى الصور

الجميلة للآمال والأحلام التى تبقى لكل إنسان فى نهاية كل عاصفة تعصف بحياته . الألم لا يمحوه ذات الألم .. يمحوه أن ننسى أننا نتألم وهذا هو الواقع ..) .

يعرف حقيقة ذلك .. ويعى تماماً مغزاه ، لكنه يعرف طبيعة الناس ويعرف ديدنهم يقولون فى العامية (عندك قرش تسوى قرش .. عندك صفر تسوى صفر) ، وهذا هو تعاملهم مع كل الذين على شاكلته ، لقهره ، نظرة العطف والشفقة منهم .. إنها تشعره بالضعف والهزيمة . وهذا مايكرهه ويبغضه ! (أنا لست مريضاً .. ولست ضعيفاً .. وأيضاً لست مجنوناً !؟ أنا إنسان أضعفته المواقف .. وحطمته الظروف وقهرته الأيام .. وغلبه الزمن .. ما أقساه يمضى ولاينتظر) .. كان يود لو يصرخ بتلك الكلمات فى وجوه الناس ليبرز لهم قوته وارادته . ولكن قواه تخذله .. وأفكاره تهزمه . رأى فى تلك اللحظات التى يمر بها كيف أن آماله وأحلامه تتساقط أمام عينيه كما تتساقط الدموع فى وجه عذراء حزين .

.. إذا كان هو لايدرى بالتحديد متى وأين بدأ مشواره المؤلم .. وكيف تفاقمت أحزانه .. وكيف تفجرت فى نفسه فجأة براكين القلق والخوف والاكتئاب ؟ كانت العيون حوله تتفرس بفضول منبوذ تقاطيع وجهه الأسمر وقد تغيرت من الانفراج والابتسام إلى الحزن والاكتئاب .. لكن أمه كانت الوحيدة التى تعرف متى كانت البداية .. ؟!

.. تذكر كيف جاءها ذات ليلة .. يقص عليها ما رآه فى حلمه ، وهى تعرف أن أحلام الشباب وآمال الصبا تتفجر فى داخله ونفسه . لقد نسى خياله وازدهت الصور فى أفكاره ، لكنها عرفته قنوعاً لايؤمن بـ (الفوارق) ولايلقى بالاً بحياة الآخرين المترفين ، ولايوجد وجه مقارنة بينه وبينهم ! وهو الإنسان الذى يعيش حياته البسيطة جداً .. والضيقة جداً وهم الذين يعيشون حياتهم بالطول والعرض . لم يكن يهتم بالشباب الذين هم فى مثل سنه الذين يقودون السيارات الأمريكية الفارهة ولايقارن نفسه بهم بالرغم من أنه لايجد لنفسه ولا أبسط وسائل المواصلات !! حتى أجرة التاكسى يدخرها لأمه ولنفسه . لكنه كان

بذلك كله قانعاً راضياً . حتى جاءت تلك الليلة التى رأى فيها مايرى النائم .. ان مهراً أبيض جميلاً .. أعجبه فصمم على اللحاق به وأسره . باءت محاولته بالفشل بعد أن أفلت من يده المهر وخاب أمله فى اللحاق به لأنه كان أسرع منه . وحينما أفاق .. ظل ذلك الحلم محفوراً فى خياله لايفارقه ، وتفاقمت الأزمة فى نفسه وتزايدت الأحزان فى داخله بعد أن تكرر الحلم . قد وجد فى ذلك (المهر) ضالته التى يبحث عنها ، لتحقيق آماله وأحلامه فى المجد والجاه والثروة . فتارة يفسره على أنه ذلك الحب الذى تفتح له قلبه .. منذ نعومة أظفاره .. حبه الطاهر البرىء لـ (مريم) الملاك الرقيق ، من ملكت عليه جميع مشاعره وعواطفه ؟! التى يراها عصر كل يوم وهى تغسل جدائل شعرها الأسود فى أشعة الشمس الصفراء الباهتة ، فيصفق لها قلبه ، وفى نفسه حسرة الوصول إليها .. وهو الذى لايملك لها سوى حبه المتدفق الكبير ! وهى ابنة صاحب البيت الذى يسكن فيه ، أين هو ؟ وأين هى ؟ وإن كانت تبادله على البعد ، النظر والابتسام !! .. ، أم أن ذلك (المهر) هو الثروة والجاه ، وهذا بعيد بالنسبة له ، لأن الفقر لايجلب إلا الفقر .. يعنى (مايجى من القمل إلا .. الصيبان) .. كما يقول (العم حمدان السقا) . أما الجاه فمشواره طويل وهو ليس لإنسان نافذ الصبر لايقوى على المسير .. إن الإنسان حينما ينظر إلى أحلامه على أنها حقيقة .. لايجنى غير السخط والقلق والضجر من الحياة التى يعيش والواقع الذى هو فيه ـ مع أن الواقع هو البداية والنهاية لكل شىء ؟!

ـ ما أسهل على العم سليمان .. أن يفلسف الدنيا حسب مايريد ويشتهى . إنه يراها مستوية تماماً كما تستوى .. حبة (كباب الميرو) فى يده ، انه أحياناً يقول كلمات لايعرف معناها .

دائماً يذكره بالقناعة ـ وينصحه بها ، لأن القناعة كنز لايفنى ، وهو قد شبع من الكلام وملّ من النصح وعاف الحكم أيضاً .. (الكلام يا (عم سليمان) لايقيت والفلسفة

يا (عمى) لاتؤكل خبزاً !؟) .. قال العبارة الأخيرة لعمه سليمان بعد أن طفح به الكيل وضاقت نفسه ، والثورة تصرخ فى داخله ..

– ربما كنت على خطأ ، وربما كنت على حق ! فأنا لا أدرى (الصح من الخطأ) ؟! كل ما أدريه أنى سئمت نفسى وعفت حياتى ، ومللت اللقمة التى أقتات . كل ماأريده ثروة تهبط علىَّ من السماء ، تكون لى عيداً ، وتنقلنى من ضنك العيش إلى ترفه ..

مسكينة (الخالة أمينة) قلبها يتفتت كل يوم وهى تشاهد ابنها فى مثل هذه الحالة .. فقد أصبح يتمثل بأقوال وأفعال كان يكره التعامل والتخاطب بها ، ويمقت الذين يخضعون لها ، كان يقتصد من أجل قوت يومه ليشترى كتاباً يشبع به نهمه الثقافى !! وهو اليوم يرى أن (الخبز قبل كل شىء .. كل شىء !؟)

كانت فخورة به وعظيمة .. وهى اليوم آسفة عليه وحزينة .. إنها تكره ترديده لتلك العبارات التى لاتمثل صبر المؤمنين بأية حال !! فهى عبارات الجحود والنكران ونفاذ الصبر . والذى يعزيها فى كل ذلك أنها تعلم تمام العلم أن ابنها (عليا) يمر بعاصفة تجتاحه وهو مازال يصارع ماتعربد به وماتخرب . وان كانت لاتبقى فيه ولاتذر !! وتعصف بأحاسيسه !! وكل كيانه !! إنها واثقة من أن تلك العاصفة الهوجاء التى حملت ابنها على أن يرتدى قناعاً قبيحاً .. فيه كل الدمامة والعبوس .. ستهدأ حتماً .. وستصفو السماء .. وتنجلى العتمة .. ويظهر نوز الشمس من جديد ! وسينزع (علي) القناع عن وجهه . وتعود له حالته الطبيعية متى عاد إلى أرض الواقع .

.. وفيما كانت الخالة أمينة تؤدى صلاة الفجر .. رفعت يديها إلى السماء تدعو الله أن يزول اليأس وأن ينقذ عليا من بلواه ومحنته !!

جسم ثقيل .. يصطدم بأرض الغرفة المجاورة .. غرفة (على) فأسرعت فى خوف وهلع .. لتجد ابنها على الأرض وقد وقع من على سريره ، أقبلت نحوه بقلب واجف .. وفى

التياع شديد .. واحتضنته إلى صدرها . كان بين النائم والمستيقظ !

ـ ماذا بك يا على ؟ ماذا جرى لك ياحبيبى ؟

لم يجبها .. فقد بدا مبهوتاً .. كمن أفاق للتو من نوبة صرع شديدة . صورة (المهر الأبيض) لاتزال عالقة فى ذهنه .. وترتسم صورته فى مخيلته .

عادت .. أمه تسأله وتلح فى السؤال .. بخوف وجزع :

ـ هل عاودك الحلم مرة أخرى !!؟

وصمت .. وهز رأسه بالإيجاب .. افترت عن ثغره ابتسامة هادئة .. والدم يتفصد من جبهته .

* * * *





وللشيطان حوافز

صوت الريح مازال صفيره فى أذنيه . الليل بوحشته يخيم على قلبه ونفسه . الخوف يتملك كل إحساس فيه . كانت نظراته غير مستقرة . تلوج عينـــاه فى اضطراب وقلق . ألم فى صدره يتسع ولا يعرف له مكانا . فكره يأخذه لمتاهات غامضة . لحظة الخوف تسيطر عليه . يتوجس خيفة من ذكر التفاصيل . صمته لا ارادى . لا يدرى ما الحقيقة ومـا الخيال ؟ لا يعرف شيئاً ابدا . قلق وخوف تتحرك له اطرافه واعصابه . جسمه يرتعد ، كأن مسا شيطانيا اصابه ، وجهه شاحب .. كميت ينتظر الدفن ..

ـ (أهى مثل هذه ؟)....

توقف الحوار عندها ، وبدأ التأزم . قال تلك العبارة رفيقه وهو يغادر دار رفاقه عائدا الى بيته . كان الحديث يدور بينهم عن الاشباح والارواح .. وهل هى حقيقة ام خيال . كان الى وقت قريب يؤكد انها محض اختلاق وخيال . هو لا يخاف .. ولا تؤثر فيه تلك الحكايات وينصت لها احيانا ليقتل الفضول فى نفسها لا يصدق حرفا فيها .. بل لا يميـل الى سماعها اصلا .. فهو لا يستمع الى كلام لا يقتنع به . وقد عرفه رفاقه بهذه السمات عرفوا فيه الجرأة والجسارة . اذا قال انه امضى ليلته نائما على حافة قبر صدقوه وما وجد فيهم مكذبا لقوله .

.. أكد اكثر من مرة ان ما يراه الغير ويعتقدون انه لاجسام غير انسية ، إنما هى خيالات يصنعها الخوف والتصور . لا يصدق ان هناك من يرى أهل الجنَّة مرأى العين . كانت جدته لامه تقص عليه قصصا . يردها الى الخيال رغم صغر سنه ، وهى تؤكد له انها

حقيقة . بل كانت تتوعده وتحذره من التعرض لها باعتقاداته التى تكذبها وتدحضها . حتى انها اخافته مرة قائلة :

ـ (إن ذكرت هذه الحكايات بسوء .. فان اصحابها سيصيبونك بشر)

لكنه كان لا يعير كلام جدته أيّ اهتمام . ولا يعتبر تلك الحكايات الا احاديث خرافية ملفقة .. احكمت احداثها باتقان ودقة !! ، كان هذا مدعاة لخوف امه وقلقها عليه . لقد كرهت فيه جرأته وحماسه المندفع الذى يدفعه الى الخطـر . ولـم تجُدِ فيـه نصائحهـا وتهديداتها . اذ رأته مرة يضرب قطا أسود بعصا غليظة .. فصرخت فى جزع شديد .

ـ (يا لك من شقى . اما علمت انه ليس كل قط اسود بقط ؟)

يومها ضحك بسخرية . ضحك لان امه تصدق مثل هذه الخرفات . وكان لابد ان تصدق .. مادامت امها ـ اى جدته ـ تلقنها منذ صغرها بالخرافات التى يرفضها . كان خطأ امه انها صدقتها ، والا لما اصبحت تخاف من كل شيء .

لقد نشأ نشأة خشنة . عاش مطمئنا دون ان يدخل الخوف نفسه وشعوره . فهـو يرفض كل ما يرفضه العقل . تفكيره صحح اوضاعا كثيرة . لذلك فهو يرد كل حكاية لا يقتنع بها الى الخيال والتصور . غرمه بمشاهدة المعانى حين ترتسم على الوجوه . كان ذلك مسلاة له ولتصوراته . وقد وجد فى هذه الحكايات ، ما يحقق له رغبته ليغوص فى الاعماق ويتفرس الوجوه . راح هو الآخر يؤلف من نسج خياله وتفكيره حكايات عن الاشباح والارواح .. ووجد فى حبكها شيئا من الاثارة والتشويق وهو شيء تعلق به وعشق الابداع فيه .

فى سمرهم تلك الليلة .. أحس بالخوف الذى لم يساور قلبه قط ، لاول مرة ! لم يكن خوفا بمعنى ذلك الخوف الذى يحس به الناس ، لكنه احساس غريب اضطرب له قلبه . تراجع لاول مرة عن مجاراة رفاقه فى الحديث ، وكان من المبادرين بالاخذ بناصيته والخوض

فيه .. بتمرس واقتدار . اسلوبه يؤثر فيهم ويدهش له الجميع . رغم انه كان يؤلف حكاياته دون ان يشعر الغير بانها مؤلفة .. لزم الصمت . وقد حد ذلك الاحساس من تحمسه واندفاعه .

رواية من الروايات .. وصل بها راويها الى نهايتها . فر من كان بالمجلس . وصاح احدهم وكان بعيدا عنهم :

– (كفوا بالله عليكم . اننى وحيد هذه الليلة . مستحيل ان اواصل سماع مثل تلك الحكايات)

اما هو فقد تنملت اطرافه . واصيب جسمه برعدة .. انتفض لها كل عصب فيه . احس برطوبة جبينه ، تنبهت للاحساس كل شوارده . استنطق الشعور الغريب لسانه .. فسمى باسم الله بصوت لجج .

– (حدث هذا يا رفاق قبل سنوات طويلة . فقد رُوى عن الشيخ مصطفى الفحَّام أنه خرج ذات ليلة من بيته فى مكة بـ (الراقوبة) ليشارك احد اصدقائه فرحه بابنه البكر . وكان بيت صاحبه فى (أجياد) . وبعد انفضاض الحفل استثقل الشيخ مصطفى مشواره الطويل ، والليل فى منتصفه الاخير . شعاب مكة يخيم عليها الظلام . أحس بتعب شديد .. النوم يكاد يطبق على جفنيه . وجد له رفيقا آنسه فى بداية الطريق . فالشيخ محمود سلتانى رجل فكه يأنس المرء لحديثه ويطرب . سارا معا فى طريق موحش نسيا وحشته باحاديث شتى . كان الظلام دامسا يطمس كل شىء . ويجثم على صدر كل ركن من اركان الازقة الضيقة التى يمران بها ، بصيص من نور يأتى من نهاية الشارع .. كان مصدره فانوس ميت النفس !! .. الريح تلعب بوهجه . الصدر يضيق بالوحشة التى تستولى على الاقبية .. الضيقة المداخل . كانا يشيحان بوجهيهما عن رؤيتها .

عندما وصلا الى نهاية الشارع الملتوى . تطلع الشيخ محمود الى رفيقه الشيخ مصطفى

وقد اشفق عليه .. مواصلة بقية المشوار وحيدا ، وتوادعا على أمل اللقاء .

.. فيما كان الشيخ مصطفى يواصل طريقه بمشى وئيد . وصل الى مسامعه وقع حوافر تضرب الارض . تبدد بجلبتها سكون الليل ، كان الصوت قويا .. وسوق (سويقة) خال تماما . تسمّر رأسه بين كتفيه خشى ان يلتفت لرؤية الجسم الذى تضرب حوافره الارض بصلابة . ساوره احساس أثار مخاوفه .

كان الجسم لحمار .. لم يتبين هيئة الرجل الذى يمتطى ظهره . استبشر خيرا ! وجود الحمار وصاحبه سيؤنسان وحدته فى ليلة موحشة كهذه ، وصدق حدسه ! اذ سرعان ما بادره الحمّار بالتحية .. وعرض عليه مرافقته .. فالصبح على وشك الانبلاج .. والتعب باد عليه . ووجدها الشيخ مصطفى فرصة لكى يوافق . فالاحساس بالوحشة والخوف يطغى على اى احساس آخر . أردفه الحمّار خلفه ، والشيخ مصطفى نحيل الجسم وكذلك صاحب الحمار ، لذلك فلن يرهقا الحمار بحملهما .

ساد الصمت بينهما .. صوت الحوافر وهى تضرب الارض .. يحدث ضجيجا مفزعا . أحس الشيخ مصطفى بالوحشة من جديد . كان يريد ان يكون رفيقه مؤنسا وسميرا . اكتأب واغتم . ابتلع بقلق ريقه وهو يتفصد عرقا ، الوقت قرب الفجر لكنه يحس بنار تصطلى عند قدميه . أوهم نفسه .. انها حرارة الاحتكاك المحدث بين ساقيه وجسد الحمار المشعر . لكن الخوف بدأ يتسلل الى نفسه .

طلب من صاحب الحمار التوقف لرغبته فى الترجل حيث وصلا . وقال إنه يريد السير عبر اروقة المسجد الحرام . وما ان لامس الارض بقدميه .. حتى صُعِق . فقد كانت للحمار ستة حوافر ..

.. حافران منها ليسا للحمار ، وإنما هما لصاحبه .

جحظت عينا الشيخ مصطفى و .. اهتز عوده الضعيف . وقف فى مكانه كالمصلوب ،

فى الوقت الذى شد فيه الحمّار لجام حماره وفر وهو يكركر بالضحك .. مرسلا ضحكة الشيطان)

انفجر الاصدقاء بالضحك . فى الوقت الذى لزم فيه الصمت . لم يكن خائفا بمعنى ذلك الخوف الذى يساور الناس .. لكنه أحس بشعور غريب اضطرب له قلبه . تراجع لاول مرة عن مجاراة اصدقائه فى سرد أى حكاية من حكاياته المحبوكة .. انتفض فى خوف استأذن للانصراف . تسمرت قدماه قبل أن يخطو أى خطوة للخارج . الوقت بعد منتصف الليل . والطريق موحشة . لن يستطيع مواصلة الطريق الى منزله وهو فى هذه الحالة الغريبة . رأسه مشحون بخيالات القصص التى استمع اليها . حتى قصص جدته التى كان لا يصدق حرفا من حروفها . يجد نفسه مستسلما للوثوق بصحتها .

وفجأة . وجد من ينتظره خارج دار اصدقائه . وجد خادم أبيه يقف فى انتظاره . استراحت نفسه . وتنفس الصعداء ..

- (عشت يا أبى . أجدك معى دائما . رعيتنى صغيرا واهتممت بغيابى كبيرا) .

أخذ يقص على خادم أبيه ، وقد اطمأنت نفسه ، ما استمع اليه منذ لحظات . فقد كانت قصة الشيخ مصطفى الفحام والحمّار .. قصة مثيرة وتشبع غريزته القديمة . كانت ريح الدلو تهب وتحدث صفيرا .. والليل ساكن الا من ازيز الحشرات وصفير الهواء . تطلع الى وجه الخادم ليرى تأثير ما رواه على وجهه . وهو الذى يعشق تَفَرُّس الوجوه وقد اختلطت فيها المعانى والمؤثرات . وجد فى وجهه لمعانا غريبا . وفى عينيه بريق موحش .

أرسل الخادم ضحكة موحشة .. وأشار الى مكان قدميه .. قائلا :

(أهى مثل هذه ؟)

وكانتا فى شكل حافرين كساهما شعر مرمد .





كانت الشمس قد توارت خلف البيوت القديمة .. بقايا ضوء خافت يختنقه الظلام !! رماد قاتم .. يفترش خريف السماء .

كنت قصيرا بالقدر الذى أمال « النعش » عليَّ .. حين باشرت حمله . رائحة ماء الورد والكافور ، زكمت انفى .. واشبعت نفسى خوفا وكآبـة . تحسست ارض المقبـرة بخطواتى جزعا !!

.. تصورت ان عرسا ما سيقام فى المقبرة ! تصور غريب ، لو صرحت به فى هذا الموقف لقذفنى الجميع بالحجارة واقذع الشتائم ! اى عرس .. والمشهد لمأتم . لعلى اصبت بمس من الجنون ! أمعقول ان يقام عرس هنا ! أو تحت الثرى ؟ وهل ...؟!

اعتدل النعش بعد ان تركت مجال حمله لغيرى ..! الافضل ان ابتعد ، عنقى ليس كعنقهم . صمت كئيب ، وسكون لا يكسر هدأته سوى زحف الاقدام فوق التراب الميت والاحجار السبخة ، والا من صوت يناشد الجميع توحيد الله .. بين فترة واخرى .. فتنطلق حناجرهم مرددة :

(لا اله الا الله) ..

.. اصواتهم ترتجف .. مشاعر متباينة تمايز بينهم بين الخوف والحزن والايمان .

المجنونة

النهار ولّى الادبار .. ومال مودعا .. الشفق يلملم خيوطه البرتقالية والصفراء .. من السماء . كأنه يستسلم لليل فى خنوع وانكسار . حانت منى التفاتة نحو الدار التى عشت فيها سعيدا بين سيدى ورب نعمتى وبين سيدتى التى سنوارى جسدها التراب بعد قليل ، وقد نشأت فى خدمتها .

.. وتهاديت فى خطوى .. كنت بحاجة الى خلوة .. اركن الى نفسى ، بعد ان وجدت الفرصة لذلك ، اذ وقفت منبهرا بما اشاهد وارى ، لقد هجرنا الدار التى كنت اعيش فيها خادما لهما وقد احيطت بهالة من الضوء .. النوافذ مشرعة ..! والضوء ساطع . مبعث دهشتى ان لا احد يسكن فيها فهى خالية تماماً هجرت منذ انتقال سيدتى الى مصح الامراض العقلية بالطائف .

شخصت ببصرى .. لذلك المنظر .. واطلت الوقوف عنده .. ابتعد المشيعون بالجنازة . ادركت عن يقين انهم جميعا لا يرون ما تراه عينى والا لالقوا بالنعش ارضا وفروا فزعين . وانا لا ادرى هل ما اراه حقيقة أم محض تخيلات ؟

ربما كان ذلك نتيجة لتصورى المجنون .. لذلك العرس المزعوم . ولكن اعتقد اننى سأومن بصدق حدسى . اصوات غير بعيدة .. هرج غير مفهوم .. زغاريد .. ودفوف .. تصدر ايقاعات افريقية غريبة ! انها قادمة من هناك .. من الدار . لو كذبت عينيّ .. فهل اكذب أذنيّ ؟!

.. لا ادرى كيف اصف واقعى .. وكيف افسر الموقف بكل ابعاده . شعرت بان الارض تميد من تحتى والظلمة تطبق عليّ بمغالق مقبضة من فوقى .

.. لكن لماذا انا وحدى من يرى ويسمع ؟ اخشى ان ابوح بشىء .. سألقى نفس المصير الذى صارت اليه سيدتى فى آخر ايامها . سأتهم بالجنون حتما .

.. يالها من دار موحشة .. تتداعى ذكرياتى فيها كتداعي الايام والسنين واللحظات . انها تداعيات الزمن الأخير والاول والايام الخوالى ...

.. تقع الدار فى الجهة الغربية من مقبرة المدينة .. بنيت بالاحجار المنقبية المشهورة فى جدة ، تصدعت الجدران بفعل مؤثرات الزمن .. حيث احدثت فيها شقوقا واخاديد .. كأنها شقوق الكدح فى اقدام الكادحين . الباب الامامى لها مزدان بنقوش خشبية طمس بعضها .. والبعض مازال واضحا .

لابد للداخل اليها من ان يرفع قدمه .. ويحسب حساب الخطوة الأخرى ، لان الارض فى الداخل تهبط بمقدار شبرين واكثر . وفى « الدهليز » المعتم .. يوجد على يمين الداخل .. باب خشبى . يؤدى الى غرفة يعلو سقفها بمقدار يزيد على الثلاثة امتار . كان سيدى يحتفظ ببضاعته المزجاة فيها .. بتخزين اشولة البقول .. والحبوب . كان يبعثنى فى مهمة البحث عن اشياء تتعلق بالمتجر الذى اعمل فيه ، اما باحضار بعض الاشولة والبضائع .. أو لتفقد احوال المخزن .. ومحاربة الجرذان . وقد كانت مهماتى فى هذه الغرفة القميئة من اصعب وارذل المهمات لديّ .

كنت اشعر دائما فى داخلها بعدم الوحدة .. والقشعريرة ..! احساس بضيق من يكره المتابعة .. والتلصص .

* * * *

مازلت اذكر اليوم الذى وقفت فيه امام سيدى الرجل الطيب .. الشهم « عباس الافندى » ، كان ذلك امام متجربالعلــوى حين قدمت من بلدى صعدة باليمن باحثا عن لقمة العيش الشريف فى بلد آمن طيب . آمن الله ساكنيه من الخوف واطعمهم من جوع . وفى ذلك اليوم بالذات التقيت فيه صدفة بسيدتى « نائلة » كانت تقف فى متجره مختمرة بوشاح اسود وقد لف جسمها الريان فى عباءة لها لون الخمار . ايقنت ساعتئذ انها تقف كغيرها من الزبائن .. لكننى لم احسن الحدس ..! فبعد ان قبلنى سيدى للعمل لديه فى خدمته ، تكررت زيارات سيدتى فى مواعيد محددة . عرفت بعدها ان علاقة حميمة تربط بينهما . لم تكن علاقة زبون بصاحب متجر ..! فليس فى بضاعة سيدى مايغرى النساء . وما من تفسير لما يدور بينهما من حوار وهمس ونظرات .. خلال لقاءاتهما سوى العشق ولا شىء غيره .

* * * *

كان من الطبيعى ان ينتهى العشق بينهما الى زواج . وبعد ان ضم سيدى سيدتى « نائلة » الى بيته .. حرصت ان افنى عمرى فى خدمتهما معا .. خصوصا ان سيـدى يعتبرنى ابنا من ابنائه لا خادما عنده .. وكانت سيدتى تشجعه على ان يقدم لى عونه ومساعدته وعطفه . وبعد ان خصص لى سيدى غرفة من الغرف .. العلويـة للـدار .. اصبحت فعلا واحدا منهم .. وعاصرت كل الاحداث ... ، فالايام التى عشتها فى هذه الدار .. ايام لا تنسى ابدا .

.. الموت يخيم بسكونه فى كل جنباتها .. واركانها . ورائحة الرطوبة .. والتراب الرطب تعبق فى كل مكان منها . اسم المقبرة .. كفيل بتصور كلى شيء . ما ان يُرخى الليل ستاره حتى تنقشع الامور تماما .. ويتجسد كل شيء . رغم ان نوافذ الدار جميعها تطل على الشارع العام الا نافذتين كانتا تطلان على المقبرة . فان كل شيء يؤكد انك فى المقبرة ذاتها . إحدى النوافذ المطلة على المقبرة كانت فى الغرفة التى يحلو لسيدى وسيدتى ان يتسامرا فيها ويمضيا اجمل اوقاتهما وقت القيلولة وبعد العشاء . اما الأخرى فكانت فى اسفل الدار في الحظيرة الموجودة فى نهاية « دهليز » الدار على يمين الصاعد سلالم الدار . اذكر اننى كلما رفعت قدمى لصعود درجات السلم اشعر ان قدميَّ قد كبلتا بمرذبات حديدية .. فاحس بثقلهما .. واشعر بانقباض وقشعريرة .

* * * *

ما ان تميل الشمس نحو المغيب .. وتختفى عن الواجهة والنوافذ « الرواشين » .. حتى يبدأ الظلام فى الزحف . ويغيب النهار وقد خَلَّف الوحشة والكآبة فى كل الدار .

.. ظلام موحش .. يتمزق بضوء خافت مخنوق ..

.. رائحة رطوبة عفنة .. لتراب لدن ..

.. سكون الموتى يخيم .. بوحشة ..

وشعور قوى انها تنبعث من قبورها وفى اكفانها .. من زاوية الحظيرة .

المجنونة

لم يكن سيدى متعلقا بهذه الدار .. الى الحد الذى لا يرضى معه بالانتقال الى سواها ، فقد ورثها عن ابيه ويترحم عليه كلما تذكر انها من إرثه . ولما كانت تجارته لا تدر عليه إلاّ بالقدر الذى يكفيه مؤونته ومؤونة عياله . فقد آثر مرغما ان يظل بها بقية عمره الى ان يغير الله حاله الى حال افضل . ولكن حتى ان رغب فى بيعها فسيجد الجميع راغبين عن شرائها . لقد ذاعت شهرة اشباحها ، حتى كانت مثار حديث الناس ، ومادة خصبة لروايات الرواة .

كنت احد الذين لا يؤمنون بالاشباح . وقد عشت فى الدار سنوات طويلة لم أر فيها شبحا او خيالا شككت فى انه لبشر . وان كانت المخاوف تساورنى بين حين وآخر . وان الاحساس بالانقباض والكآبة وعدم الشعور بالوحدة .. كان يلازمنى ابدا . الا اننى لم ار قط شيئا اعتقدت انه من الذى يتحدثون عنه . حتى حدث ما حدث ..

* * * *

عشرون عاما مضت اصبحت خلالها شابا يافعا ، واصبحت الدار بعدها اكثر وحشة بعد فراغها من ابناء عمى عباس ، فقد تزوجت « سلمى » وسافرت مع زوجها الى الرياض حيث يعمل ويقيم ، اما « حسن » و « على » فقد سافرا فى بعثات تعليمية الى اوروبا . ولم يبق فى الدار سوى سيدى وسيدتى وأنا !!

افضى الىَّ سيدى بما يعتمل فى نفسه من رغبة فى تزويجى ، محاولا إعادة تعمير الدار بفوضى الاطفال . كنت المس ما يعانيه من ضيق وحزن . وقد اعتلت صحة سيدى ولازم

الفراش فترة .. عكفت خلالها على تولى شؤون المتجر والبيت . لكننى اضطررت فى الايام الأخيرة لاغلاق المتجر بعد ان علمت من الطبيب الذى يعالجه ان صحته فى تدهور . وأنه بحاجة الى طقس جاف للتغلب على نوبات الربو التى يعانى منها . واين له بهذا الطقس وجدة معروفة برطوبتها اللزجة . لم يمهله المرض طويلا فادركته المنية متأثرا بمرضه . وأقبر فى المقبرة المجاورة . كنت اشعر شعورا غريبا ان جسده قد استقر فى مثواه الأخير لكن روحه مازالت باقية تحوم فى أرجاء الدار .

* * * *

اما سيدتى فقد اصبح حالها يُرثى له . طار صوابها وفقدت جزءا كبيرا من عقلها . اذ لم يكن من السهل عليها ان تألف الحياة دونه . ووقع الصدمة كان شديدا على قلبها المشغوف بحبه . وقد داهمه المرض على حين غرة .. وادركته المنية فجأة وهو اقوى ما يكون عطاء ومضاء .

كانت لا تفارق النافذة المطلة على المقبرة .. فجسده على بعد خطوات منها .. وروحه تحط قربها كما لو كانت تنادمه وتجالسه فى المجلس الذى هى فيه . حاولت كثيرا ان أثنيها عن الذى تفعله بنفسها لكنى فشلت . كانت تتمنى لو تقبر حية بجواره ، لتنعم بقربه كما نعمت به طوال السنوات الماضية . إنها لا تتصور كيف تعيش بقية العمر بعيدة عنه .

حاولنا كثيرا اخراجها من الدار الموحشة دون جدوى ، فقد حاولت « سلمى » وحاول زوجها و« على » وأنا ، الا انها كانت تقابل تكرارنا لامر مغادرتها الدار

باصرارها على البقاء فى جواره ، انها لا تريد الابتعاد عنه .. هكذا ! بل اكثر من ذلك . انها اليوم تعشق « المجلس » الذى جمعهما وهو حى .. وهو ميت ! فكما كانت تنظر الى عينيى حبيبها عباس بعشق وهيام . تنظر اليوم بنفس النظرة ونفس الشعور الى الارض التى امامها .. والتى تشهدها صبح مساء ، الى البقعة الصغيرة هناك .. الى حيث يضم رفات زوجها .

.. وتنتظر .. عند مغيب الشمس .. ومع انهزام الضوء فى زحف الظلام ، تنتظر قدومه ! مات جسده .. لكنه لا ينقطع عن جلسته معها كل مساء !! هذا ما تقوله .. وتردده .

* * * *

أكثر من مرة .. سمعت اصواتا .. ادركت انها لا يمكن ان تكون من داخل الدار . وأوهمت نفسى مرارا انها صادرة من السوق القريبة .. أو من المقبرة ، وهذا امر مستحيل ، لكنه قابل للتصديق والقبول بحقيقته ، اما من الدار فذلك من رابع أو خامس المستحيلات .

إنه نفس الهمس الذى كنت اسمعه .. ونفس الحوار الذى كان يدور بين سيدى عباس وسيدتى نائلة ، وادركت ان فى الامر سرا خصوصا وان سيدتى اصبحت تلازم غرفتها ولا تغادرها ابدا . لم تجن .. وهذه حقيقة . لم استطع تصديق ما خامرنى من شك . فليس معقولا ان تكون لسيدتى علاقة بشخص ما ! فهى فوق هذه الشبهات . ثم

انها كانت تعشق سيدى عشقا لا يدانى ، فهل من المعقول ان تعشق سواه وبهذه السرعة ، اذ لم يمض على وفاته سوى اشهر قليلة ؟

كنت اتردد على سيدتى من حين لآخر لاقف على ما تحتاج اليه ... افنيت فترات صباى فى خدمتها وخدمة سيدى ، واليوم هى احوج الىّ من اى يوم آخر .. وفى ليلة انتابنى شعور بالخوف لاول مرة ، فالاصوات التى احترت فى تمييزها والتأكد من مصدرها ، توصلت الى حقيقة شبه مؤكدة انها من الدار ! فهى لم تعد همسات وهمهمات .. بل اصبحت ضحكات .. وقهقهات !

* * * *

نهضت من فراشى تلك الليلة وأنا أسير على اطراف أصابعي .. خائفا كما لو كنت اترقب خطرا محدقا . كانت الضحكات .. لسيدتى .. وهى لا يرتفع صوتها بالضحك الا حينما تكون فى أوج سعادتها وقمة فرحها . لكن شيئا ما جعلنى افقد الحركة تماما .. وغشينى شعور بالخوف والرهبة . احسست ان لا شعرة فى جسمى وفوق رأسى الا واصبحت قائمة كاسنان الفرشاة ! جمدت اطرافى ..! وانتابنى شعور بالرهبة والاختناق .

لقد سمعت صوته ..! الصوت الذى لا انكره .. والذى عشت على سماعه طوال هذه السنين والايام ينادينى ويحدثنى .. بصوته الهادىء .. وتنحنحه المميز .

وصعقت .. تبلدت حواسى . فصاحب الصوت قد مات .

حاولت ان اعود ادراجي الى حيث كنت . لكنى افتقدت القدرة على الحركة ، حتى النطق لا طاقة لى به .. وفجأة .. فُتح باب الغرفة .. واطلت سيدتى .. كانت فى أبهى حللها .. مزدانة يفوح منها عطر الليمون .. مجدولةالشعر .. ضاحكة مستبشرة :

(تعال ياسعيد . انظر .. إن سيدك قد حضر فى موعده ، وها هو ذا يحتسى شاهيه الاخضر .. ما بك ؟ لا تخف ..)

حاولت دخول الغرفة وقد ارسلت ضحكة لها رنين اخاذ .. أدخلت رأسى .. وجسمى مازال خارجا وجست ببصرى استطلع الامر ! الخوف يملأ قلبى .. خشية ان يكون ما تقوله سيدتى صحيحا ، وجدت ان الغرفة خالية !! أبخرة متصاعدة فى احد الاركان .. اصابتنى برعدة شديدة !! كانت الابخرة تتصاعد من « السموار » ، قشعريرة سرت فى جسدى كأن شيئا غريبا قد مس جوارحى . خامرنى احساس ان ما تقوله سيدتى !! لابد ان يكون صحيحا حتى ولو بنسبة بسيطة .

صرخت سيدتى فى وجهى .. وانتفضت كالملسوع :

ـ (كلكم كاذبون . وانت يا سعيد .. لم اكن اعلم انك واحد منهم ، لقد كذبتم علىَّ وقلتم ان عباس قد مات . انظر . الا تراه بجانبى .. فى مقعده المعتاد . الا تسلم على سيدك ياقليل الاصل ؟)

حاولت ساعتئذ ان ابدو طبيعيا .. واتظاهر بمعرفة كل شيء .. الا اننى .. ادركت ان سيدتى قد بلغت حدا معينا من التصورات الغريبة !! أو انها اصيبت بلوثة عقل ، فيصدق حدس الذين يتقولون عليها بحكايات واقاصيص .. يندى لها الجبين تارة .. وترتعد لها المفاصل تارة اخرى ..

* * * *

كنت ارقب نظرات الناس اليَّ .. وانا أسير بينهم .. وألج داخل الدار .. كانوا يعتبرونني رمزا للبطولة ورباطة الجأش .. لقد كانت الدار قد اشتهرت بينهم .. انها مأوى .. يأوى اليها الاشباح وتتصاعد فيها ارواح الموتى ، وازداد احساسهم بالخوف منها .. ان سيدة مجنونة .. تسامر الاموات وتستأنس بلقائهم . فى ذلك اليوم اغلقت المتجر مبكرا .. وكنت حزينا لان ابنى سيدى رَغَّبا اليّ عزمهما على بيع المتجر .. كان هذا قبل ان تنتقل سيدتى الى الطائف بيوم واحد ، وقد رجعت فى تلك الليلة يائسا حزينا واغلقت باب الدار خلفى . ظلمة دامسة .. أخرجت الكبريت لارى مفتاح الضوء ..!

ـ (التيار الكهربائى مقطوع)

صاح صوت من الخارج .. اضطربت له وانتابنى شعور بالخوف والفزع . ظلام موحش ، ورائحة تراب لدن ، وسكون غريب .. يتقطع باصوات بعض الحشرات الليلية .

سرت قشعريرة فى سائر جسدى . الاحساس بعدم الوحدة يلازمنى .. خصوصا وانا اقترب من العتبة اللعينة القريبة من الحظيرة . تلمست باعصاب مهزوزة .. الجدران .. وقدماى تتعثران فى خطواتهما وانا آخذ طريقى فى صعود درجات السلم .. تعثرت وسقطت على الارض .. أحسست بحركة لا تصدر منى .. أيقنت انى ادور فى نفس المكان .. ومحاط باربعة جدران ، كل اتجاه اتحسسه اجده مغلقا امامى !! خوفى يُفرغ صبرى .. تلعثمت الكلمات فى لسانى . تفجرت فى داخلى صرخة تستنجد بسيدتى . حتى الكبريت الذى كان معى افتقدته .. ولا أمل فى وجوده .

التقطت اذناى وقع خطوات زاحفة .. ضوء خافت يشق الظلام من احدى الجهات . سرعان ما تبينت مكانى .. تجمدت حركتى .. وانا ارقب صورة القادم فى هذه العتمة .

ظهر لى وجه سيدتى .. كان فى صورة لا تريح النفس .. شعرها مسدل على جبهتها .. تتسع حدقتا عينيها اتساعا غير مألوف .. بريق موحش أوجست خيفة منه ،

المجنونة

كان من الصعب ان اتبين ملامحها لانحسار الضوء لاحظت انه مصبوغ بمساحيق باهتة .. بهتة الموت . ضحكت ومدت لى يدها ..

لا ادرى كيف تأتت لى الشجاعة الكافية على كتم مشاعرى .. وحبس انفاسى !! حركت قدميَّ وقد كانتا كما لو انهما قدتا من صخر . وتجاوزت السلالم .. وانطلقت الى خارج الدار مهرولا !! ضحكاتها الهستيرية تلاحقنى ..

.. لم استطع لقط انفاسى اللاهثة .. واطلقت لساقيَّ العنان وهربت .

* * * *

حقيقة لا اعلم .. ما الذى حدث تلك الليلة !! لقد قلبت الامر على وجوهه العديدة وعجزت عن إيجاد اى تفسير . خشيت ان يدركنى الجنون .

.. ما عدت ادرى اكانت سيدتى مجنونة فعلا ؟ ام انها تهمة باطلة ألصقت بها هى منها براء . كانت تقول لى (انا لست مجنونة كما تظنون .. انا عاشقة .. عاشقة) وربما لم تكن مجنونة ، بل عاشقة بلغ بها عشقها مبلغ الجنون . اما الشخص الذى تلتقي به كل ليلة وتدعى انه سيدى عباس . من المؤكد انها لا تلتقى به فعلا . ولكن هناك شخص ما يحدثها وتحدثه ؟! ربما كان شخصا يتقمص روح المرحوم ليزورها ويلتقى بها .

* * * *

خيم الظلام على المقابر.. ! عدت ببصرى الى حيث استقر نعشها . مازالت الدار على حالها الذى تصورته ، هرج غير مفهوم ، زغاريد ودفوف لها ايقاعات افريقية غريبة .. وهالة من الضوء تحيط بجوانبها . ادركت انى أهلوس .

هاهى .. سيدتى تلحق بسيدى .. فى نفس القبر . ألم اقل ان عرسا ما سيقام فى المقبرة . ستزف اليه مرة اخرى ! لم اشأ ان اترك فرصة الامساك بجثمانها والايدى تحمله الى مقره الأخير ..! واسرعت بمد يدى ..

.. ضوء الاتريك المتقطع الانفاس يفسر وجوه الحاضرين ـ الدَّفن ـ ثم لا يلبث أن يأتى الظلام مهيمنا فيحجبها تماما . هالوا التراب على القبر . ما كدت ارفع رأسى من على البقعة التى ينسكب فيها التراب .. حتى ذهلت وانتفضت كالمفجوع ..! ليس معقولا ! ربما كنت احلم . او انى مازلت فى خيال تلك الاضواء المتلألئة التى لا يراها سواى .. لكنه وجهه ! واحرامه البغدادى على كتفه ..! انه سيدى عباس الذى لا انكره .

بدا وجهه مصبوغا بنفس المساحيق التى كانت فى وجه سيدتى تلك الليلة .

* * * *







أقصوصتان للظل والمطر

المطـر ..

.. كان جو الغرفة مشحونا بسكون كئيب . حزن يخيم على المكان بشكل مأسوى . صغير الهواء .. يكسر هدأة السكون من حين لآخر . نسمات مصروعة من الهواء البارد تدخل الى الغرفة من خلال ثقوب النافذة . ليلة من ليالى الدلو .

انشق جوف الغرفة بتيار الهواء العاصف .. من خلال النافذة فجأة . اهتزت الستائر المسدلة عليها فى جنون . عصف الهواء باوراق الصحف المهملة على الطاولة الزجاجية . وانسكب ما كان فى الكأس من ماء .. وتناثرت اعقاب السجائر فى كل الانحاء .

تطلعت امرأة فى اواخر العقد الثانى وقد كاد ان يبتلعها المقعد الوثير الذى يحتضنها . لم يكن ما حدث بالشىء الذى يثيرها . فقد كانت غارقة فى دوامة أنستهـا العاصفـة المحيطة بها . كانت مشنوقة باحلام مفزعة . تحركت خصلات شعرها الاسـود الفاحـم بعصيان وتمرد فوق كتفهاالعاريــة.. وجبهتها الحنطية . وسمرت النظرات فى ارض الغرفة ..

فى الزاوية الأخرى .. وقف رجل تخطى عقده الثالث بسنوات . بدا وكأنه ينتحـر بصمت . الشك ينغرس فى صدره ملتاثا حتى الموت . نار مسعورة فى داخله . وسيل جارف من التساؤلات والاوهام يتدفق فى خياله . انه ينتظر ان يجد جواباً على اى سؤال من تلك التساؤلات . يريد ان يقتنع . ليصمت ويستسلم للحقيقة والواقع .

أقصوصتان للظل والمطر

.. الصمت الرهيب المهيمن على كليهما . استحال فى صدره الى احساس مغاير . انتفضت نفسه بثورة عصبية مباغتة . أمسك بالاناء الفخارى الصينى الـذى كان فى متناول يده . والقاه فى وجه الحائط !! تناثرت أشلاؤه فى الغرفة . اهتزت لذلك فزعة . كأنها استفاقت من غيبوبة . انتظر وصمت .. حتى قتله الصمت . كان فى موقف الحائر التائه لا يدرى ما الحكم الصادر بحقه . لا يدرى ان كان ظالما او مظلوما . قاتلا او مقتولا . رفعت رأسها بعد ان جالت ببصرها فى ارجاء الغرفة حيث تناثرت قطع الاناء الفخارى . واستدارت اليه بوجهها .

.. التمع ضوء البرق فيه . تبللت خصلات شعرها بدموعها . دوى صوت الرعـد مجلجلا واشتد صفير الريح . الليل مسود .. سوادا كاحلا .. لانجوم .. ولا قمر . الجو ينذر بمطر غزير . هبت النسمات الباردة لتلامس وجهها .. واستضاء بالبرق . بدا حزينا . الريح جاءت لتمسح دمعها .. والمطر سينهمر بعد لحظات ليغسل الحزن والاغتصاص .

.. تكسر الصمت مرة اخرى بالرعد القاصف . خيم بعده السكون الكئيب . جاء صوته كصوت الرعد : (كان بامكانك ان تكون اكثر صراحة معى . صمتك يؤكد خداعك لى) .

صمت .. ولكن على مضض . كان يغلى كغلى المرجل . بينما كانت تلوذ بالصمت فى حزن وحيرة . تساقطت فجأة كل الاوراق اليانعة الخَضِرة .. وبقيت الاغصان فى عينيها عارية جافة .. تلاشت احلامها وتناثرت .. كأنها اوراق خريف باريسية !!

(لست اندم على شىء فى حياتى .. سوى ندمى على أنى احببتك)

كانت كلماته كالنصال الحادة يغرسها فى صدرها بلا رحمة . كانت تريد ان تصارحه ..

تريد ان تواجهه بالحقيقة . لكن شفتيها تيبستا .. صمتها يعذبه . وخوفها من مواجهة الموقف يعذبها . لم تكن قادرة على امتلاك الجرأة لتقول له كل شيء . أخذ يضرب على الحائط بمقابض يديه .

ابرقت السماء برقا لماعا .. احال الغرفة الى نهار . عصفت الريح بكل شيء .. صفرت صفيرا مزعجا ، دوى الرعد دويا مجلجلا . انتفضت فى مكانها . الرعشة تدب فى شفتيها . علقت نظراتها الحزينة فى وجهه المتجهم . حزن كئيب يخيم على المكان . بدا وكأنه يتعرى من كل احساس حي ! تبلدت حواسه للحظات المرتقبة .

قالت بصوت تستنزف بحته الخلجات . والدمع طفاح عينيها :

(كنت ضعيفة أمام كلمته . مغلوبة بالهيمنة والجبروت الذى يحكمنا به . كان لابد ان نقبل بكل ما يمليه علينا بلا جدال او مناقشة . أوامره مطاعة .. ورغباتـه مستجابـة . زواجك منى كان احدى رغباته . وكان لابد ان اقبل على مضض .. كان شعورا قويا يلازمنى باننى سافتقد الحس والاحساس معك . وليس لى أن اعارض أو أرفض . فالحب عند أبى خرافة . والزواج بمشورة الفتاة مهزلة وضعف ارادة . فماذا كنت تريدنى ان افعل من اجلك .. الحب شيء لا املكه .. و ...)

.. اغمض عينيه وقد أظلمت الدنيا فى عينيه .. ومادت الارض من تحته .. كانت قد صمتت .. اما هو فقد احس بان كلماتها غصص فى حلقه تخنقه . القهر يتفجر فى داخله . صدى الكلمات انساه كل شيء . هوى على الارض كالعجل .. وجثى على ركبتيه . دس رأسه بين يديه المرتجفتين .. وقد عجزتا عن حملـه

.. انهمر المطر بشدة .. اخذت قطرات الماء الكبيرة تخبط الارض بشدة . خيوط البرق تشقق ثوب السماء . الريح الباردة تعصف بوحشية .

.. الجو مشحون بسكون كئيب . حزن مأسوى يفتت الافئدة . استوحش المكان بعد دوى الرعد القاصف . رفع رأسه وهو ينتفض . وقال بصوت متهدج .

ـ (اذهبى فانت طالق .. طالق .. طالق)

وأجهش بالبكاء .

* * * *





الظل ..

خيوط الفجر تبدد عتمة الظلام . صوت الدِيَكة من بعيد يفتت سكون الفجر . علا صوت سعال رجل مسن فى جهة ما من المنزل . صوت (ماتور) الماء يتكتك برتابة واستمرارية ! القرية لا تزال غافية . تثاءبت الاشجار فى نشاط . وقد رقصت الطيور على الاغصان فى جذل ونشوة .. ! سيمفونية رائعة تعزف لحن الصبح والاشراق .

.. استيقظت ونسمة باردة تلامس خديها . التقطت اذناها صوت فلاح ينشد فى فرح .. ومعوله يضرب الارض ويشق صدرها . موال (حدرى) يمازج كل شيء !!

انكمشت فى فراشها متلذذة . تثاءبت قبل ان تفتح عينيها .. الريف جوه ممتع . السماء تؤذن بالشروق ! هى لم تر الشمس تشرق قط ! تستيقظ فى المدينة والشمس فى كبد السماء . تشعر بنشاط لم تعهده ابدا . تطلعت فجأة الى فراش مضيفتها . كان خاليا ، الا من ملاءة بيضاء .. ولحاف مجعد ! لاشك انها تنعم بالاشراق كل يوم ! وحق لها ان تعيش العمر عمرين ! تحتضن الفجر حتى تشرق الشمس . تشهد الوجود فى كل يوم جديد .. والفجر حين يبزغ . مازالت على فراشها .. آه .. ما اكسلها .. ما اكسل أهل الحضر .. تفوتهم هذه « الزفة » كل يوم .. مما ينقص فى اعمارهم . ولا يصلهم منها شيء وهم يغطون فى سباتهم العميق ، ولا صوت الدفوف !!

وقفت عند خرير الماء تتأمله . راعها منظر الماء المتدفق فى الوادى بهوادة وصفاء . كان يصارع الصخور والاغصان المزروعة فى مجرى الماء . داهمها شوق كبير لكى تداعب الماء بقدميها العاريتين ، اخذت تغسلها ضاحكة .. نشطة . صباح لا ينتسى . نسماته الهفهافة الباردة يقشعر لها بدنها بلذة وينعش مباهجها . نسمات كأنها همسات حبيب لحبيب . شعرها

أقصوصتان للظل والمطر

يسبح فى الهواء .. مسافراً الى كل الجهات .. جاءها مع النسمات المدغدغة صوت ضاع بينها :

ـ (يوم جميل .. أليس كذلك ؟)

... خافت ان ترفع رأسها اليه . مستحيل ! صوته . كصوت الحبيب . جاءت لتنسى وتتناسى . وجاء الصوت ليذكرها .

.. ولا توجد اليوم معجزات . الموت لا ينقلب الى الحياة الا بقدر .

لابد أنه صوت انسان سمج . يتقن التحكم فى طبقات الصوت . جاء ولاشك ليعكر عليها صفو اللحظات الرائعة . تجاهلته . عادت لتداعب الماء بقدميها من جديد ! وقفت قدميها عن الحركة كانت تريد التأكد من الخيال الذى فى الماء . لا تستطيع تفسيره قد تكسرت قسماته فى اضطراب الماء . يالله مستحيل ان يكون الصوت صوته .. والخيال ايضا خياله . رفعت رأسها بخوف واضطراب . حركت رأسها بحذر لتشاهد الواقف خلفها . كان صوته .. وها هى صورته .. هل هى المعجزة !

ـ (.. هل تعود الاجسام الميتة الى الحياة .. الى الدنيا بعد ان توارى التراب ؟ مستحيل !)

احست بأنها تفقد توازنها . تماسكت ، وتجرأت وامعنت النظر فى وجهه . تبسم وقد اصيبت نفسه بالنشوة والغرور . تطلعت اليه من جديد دون ان تحرك شفتيها .. واطلقت لساقيها العنان .

.. كان مزهوا بنفسه . اغتر فقد شغفت بهواه فتاة واى فتاة ؟ ! سبحان المعبود !

.. اصطدمت بكل اندفاعها وحركتها فى جسم مضيفتها التى كانت تهم بالخروج من الدار ..

ـ (ما بك . هل من شىء ؟ اراك مضطربة ! انفاسك المتلاحقة تنبىء بذلك)

ـ (من الرجل الواقف هناك عند غدير الماء . قولى من بربك يكون ؟)

ـ (هل ضايقك .. هل اساء الادب معك ؟)

ـ (لا ..لا ! كان لطيفا .. لطيفا جدا . فقط اردت معرفة من يكون ؟)

ـ (إنه اخى .. ألا تعرفينه ؟)

ارتمت فى احضانها لاهثة . وغرقتا فى ضحك متواصل . دلفتا الى داخل الدار متعانقتين .. والشمس البازغة تسطع فى الوادى .

* * * *



فهرست



إصدارات إدارة النشر بتهامة

سلسلة : **الكتاب العربي السعودي**

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمـأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية	(شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفـة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي

• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
• نبض ...		الأستاذ عبد الله جفري
• نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
• السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الأصداف	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية		الدكتور إبراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
• نقر العصافير	(شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز		الأستاذ عبد الله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• خواطر جريئة		الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ
• السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة	(شعر)	الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• جسور إلى القمة		الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
• الحمى	(شعر)	الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• قضايا.. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز		الأستاذ محمد علي مغربي
• الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج

تحت الطبع:

• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• زيد الخير	الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

الكتاب		المؤلف
• عام ١٩٨٤ لجورج أورويل	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مشواري مع الكلمة		الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• لن تلحد		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• الإسلام في نظر اعلام الغرب		الشيخ حسين عبد الله باسلامة
• قصص من طاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• أيـامي..		الأستاذ أحمد السباعي
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
• دوائر في دفتر الزمن	(مجموعة قصصية)	الأستاذ سباعي عثمان
• من حديث الكتب		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الموزون والمخزون		الشيخ أبو تراب الظاهري
• ألحان مغترب	(شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• هكذا علمني وردزورث		الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
• وحي الصحراء		الأستاذ عبد الله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود
• لجام الأقلام		الشيخ أبو تراب الظاهري
• أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
• قراءات في التربية وعلم النفس		الأستاذ فخري حسين عزي
• إليهـــا	(شعر)	الأستاذ حسين سراج
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• غرام ولادة	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين سراج
• أحاديث		الدكتور عبد الرحمن بن حسن النفيسة
• نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• شيء من حصاد		الأستاذ حامد مطاوع

سلسلة :

الكتاب الجامعي

صدر منها :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الإدارة: دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية		الدكتور مدني عبد القادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية)		الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد عيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة		الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبد السلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبد المنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء	(دراسة فقهية)	الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال		الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• مشكلات الطفولة		الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور	(ترجمة)	الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبد الرحمن فكري الدكتور محمد عبد الهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الانجليزية)	الدكتور أمين عبد الله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع :

العنوان	ملاحظة	المؤلف
• الأدب المقارن	(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن		الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد

مطبوعات تهامة
PUBLICATIONS
TIHAMA

صدر منها :

العنوان		المؤلف
• حارس الفندق القديم		الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك		الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي		الأستاذة نوال قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	إعداد إدارة النشر
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
• تسـالي		الدكتور حسن يوسف نصيف
• مجلة الأحكام الشرعية	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• العقل لا يكفي	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
• مواسم الشمس المقبلة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس

تحت الطبع :

العنوان		المؤلف
• الموت والابتسامة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
• أيام مبعثرة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
• رحلة الربيع		الأستاذ فؤاد شاكر
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
• ملامح وأفكار مضيئة		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح

- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
- القرآن.. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- أدباؤنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي بركات

رسائل جامعية

صدر منها:

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- القصة فى أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله باقازي

تحت الطبع:

- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الأستاذ صدقة يحي فاضل
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها:

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع:

- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
- حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
- قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

- القرد..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English By Tihama

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By F. M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED
- Zaki Mubarak: A Critical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan
- Education in Saudi Arabia, A Model with Difference
  By Dr. Abdulla Mohamed Al-Zaid.
- The Health of the Family in A Changing Arabia
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat
  Dr. Amin A. Siraj
  Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia
  By Dr. Bahha Bin Hussain Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia